

ذكريات طفولة [١]
مارسيل بانويل



مذكراتي

ترجمة : محمد سيف

سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٤٠)

ذكريات طفولة [١٦]

محرر أبي

Souvenirs d'enfance (1)
La Gloire De Mon Père
Marcel Pagnol
Editions de Fallois

ذكريات طفولة (١)

مجند أبي
مارسيل بانبول
ترجمة: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ١٩٩٧



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ش محمد صدقي، هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت: ٢٩١٣ - ٣٩٠ س: ٢٩١١٨



صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية

للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة

غلاف وإخراج: ذات حسين

لوحة الغلاف

تفصيلة من «سنونو في الخلا» لفيليبو باليتزي

رقم الإبداع: ٩٦/٨٢٣٤

الترقيم الدولي: 8 - 010 - 977 283 ISBN

ذكريات طفولة [١]

مارسيل بانيول

بحر أبي

ترجمة : محمد سيف

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية

رقم التخصيص

رقم التسجيل



دار شرقيات للنشر والتوزيع

ديباجة

هذه هي المرة الأولى - باستثناء بعض محاولات متواضعة - التي أكتب فيها
نثراً.

يبدو لي بالفعل أن هناك تبايناً بين الأنواع الأدبية الثلاثة: الشعر الغنائي،
النص المسرحي، والنثر، الذي يكتسب خصوصيته من كونه مكتوباً للقراءة.

وما يخيفني، في كتابة النثر، ليس اختيار الكلمات أو التراكيب، ولا الدقة
النحوية - التي هي، في نهاية المطاف، أمور يقدر عليها الجميع -، فما أحسب
حسابه هو حالة الروائي، وبالتحديد، هذه الحالة الأكثر خطورة، وأعني بها حالة
كاتب الذكريات.

فالحديث عن الذات أمر شديد الصعوبة، لأن كل سوء يُحدثنا به كاتبٌ عن
نفسه، نصدقه بكل حماس؛ وكل خير ينسبه لها لا نسلم به إلا ببرهان،
ونأسف دائماً لأنه لم يدع الحديث في هذا الشأن لغيره من الناس.

في هذه الذكريات، لن أتحدث عن نفسي لا بخير ولا بسوء؛ فلست أتحدث
عن ذاتي، وإنما عن ذلك الطفل الذي لم أعد بعد، هذا الشخص الصغير الذي
عرفته وتلاشى مع الزمن، كما تختفي عصافير الدوري التي لا تخلف وراءها
هيكلاً عظيماً. فضلاً عن كون هذا الطفل ليس موضوع هذا الكتاب، وإنما هو
الشاهد على أحداث دقيقة الصغر.

مع ذلك، فأنا الذي سأحرر ما يقوله نثراً . وهو أمر يخلو من الفطنة، أعني أن يغير المرء مهنته في سن الستين.

إن لغة المسرح لا بد أن ترنّ في الأذان عند خروجها من فم الممثل، ومن الضروري أن تبدو كما لو أنها مرجّلة، ولا بد أن يكون معناها متضمناً بها مباشرة، لأنه إن انقطع مرة، ضاع. من ناحية أخرى، لأن اللغة المسرحية لا تصلح لأن تكون نموذجاً لأسلوب أدبي، فهي ليست لغة الكاتب، بل لغة الشخصية.

إن إبداع الكاتب الدرامي يكمن في اختياره للشخصيات، وفي الأحاسيس التي يسبغها عليها، وفي وضع مسار الحدث. أما عن موضعه هو الخاص من العمل، فإن عليه أن يكون متوازياً. وأن يلتزم الصمت! لأنه عندما يحاول أن يسمع صوت نفسه، يسقط المضمون الدرامي للعمل، لذا، فعليه أن يظل في الكواليس، لأننا لا نقوم في المسرح سوى بالتعبير عن آراء الشخصيات، فإذا أراد المؤلف أن يشكّل هذه الآراء بنفسه، فإن على ممثليه أن يحدثونا عما يريد قوله، فهم الذين يطرحون علينا انفعالاته وأفكاره، بجعلنا نعتقد أنها انفعالاتنا وأفكارنا نحن.

أما وضع الكاتب الأديب فهو أصعب بغير شك.

فلم يعد الممثل المتمكن هو المتحدث. بل أنا. وعلىّ عبير أداة تعبيرية الوحيدة، وهي الكتابة، أن أتعزّى كلية، لأنني إن لم أكن صادقاً - أي بلا حياء بالمرّة - سأضيع وقتي في اللتّ والعجن على الورق.

يتوجب عليّ إذن الخروج من الكواليس، والجلوس في مواجهة القارئ الذي سيتأملني بإمعان لساعتين أو ثلاثة. وهي فكرة مقلقة للغاية، أصابتني زمناً طويلاً بالشّلل.

غير أنني تفحصت الجانب الآخر للموضوع.

فمتفرج المسرح يأتيك مرتدياً ياقة ورباط عنق، وهذه الحلة المعممة التي فرضها علينا الإنجليز.

فهو ليس في بيته، وقد دفع مبلغاً كبيراً لكي يجيء عندي أنا. كما أنه ليس جالساً في النهاية وحده، بل وسط آخرين من الجمهور، يرقبهم ويرقبونه. وهذا (هو السبب) الذي يجعله لا يهتم فحسب بالأدوار التي يلعبها أبطالي من الممثلين، وإنما بدوره (هو) الخاص كذلك، فهو نفسه يلعب دور المتفرج الذكي والمخترم.

وهو يعبر طيلة الوقت عن نفسه. بالضحك في غالب الأحيان، وبالتصفيق، مما يضيفي السرور والتأثر على الكاتب في كواليسه. لكن هذا المتفرج في بعض الأحيان، يسعل، ويتمخط، ويغمغم، ويصفّر استهجاناً، ويخرج ساخطاً. ولا يجرؤ المؤلف على النظر لأحد، ويستسلم، مغموماً، للاستماع للتفسيرات دائمة اللوذية لأصدقائه، وتصد نفسه عن تناول العشاء بعد ذلك.

أما القارئ - أقصد القارئ الحق - فهو دائماً صديق على وجه التقريب.

فهو الذي ذهب واختار كتاباً، وحمله تحت إبطه، ودعاه إلى بيته.

وهو سيقراه في هدوء، جالساً في الركن الذي يحبه، محاطاً بديكوره العائلي.

وهو سيقراه وحده، فلن يتحمل أن يأتي شخص آخر ليقرا معه من فوق أكتافه.

وسيكون بالطبع على سجيته، غليونه في يده، ومرتدياً عباءته المنزلية أو بيجامته.

ولا يعني كل هذا أنه سيحب الكتاب، فربما يهز أكتافه عند الصفحة الثلاثين. وربما يقول ببعض السخرية: «لا أدري كيف يطبع البعض مثل هذه البلاهات!».

لكن المؤلف لن يكون في هذه الحالة حاضراً، ولن يعرف شيئاً أبداً. فعائلته، وبعض أصدقائه الأوفياء، سيسدلون أمام عينيه ستاراً من التقرير الذي سيلطف من حرارة «الحمام السخن».

غاية الأمر، أن نجاح العمل المسرحي يتم قياسه بوضوح تبعاً لحجم الإيراد - الذي يراجع كل يوم محاسب من الديوان العام - وبعدد الحضور. لذا فسيكون من العبث بالقطع الاحتفال بنجاح الليلة المائة في اليوم الثلاثين للعرض! بينما يكون بمقدور ناشر متواطئ أن يزين كارثة روائية من إصداره بأن يطبع على النسخ الثلاثة الوحيدة التي أصدرها منها عبارة: «طبع من هذه الرواية خمسة عشر ألف نسخة».

إذن، فمهما كان النجاح الكبير للكتاب مساوياً لما تحظى به المسرحية، فإن الحمام السخن الذي قد يتعرض له كاتب النشر، يظل أقل وحشية.

.. هذه هي الاعتبارات، قليلة الوجاهة، والمطمئنة في نفس الوقت، التي جعلتني أقرر نشر هذا العمل، الذي ليست له، مع ذلك، غير بعض طموحات قليلة. فهو ليس سوى شهادة على حقبة اختفت، وأغنية صغيرة للبر بالوالدين، قد يمكن النظر لها اليوم على أنها طرفة من الطرف.

مارسيل بانيول

في ذكرى ذريّ

ولدت في مدينة أويان؛ أسفل الجارليان الذي كانت الماعز ترعى أعلاه، في زمن الرعاة الأخيرين للماعز. والجارليان برج هائل من الصخور المائلة للزرقاء، قائم على حافة سهل العقاب، تلك الهضبة الصخرية التي تشرف على وادي الهوفون الأخضر.

وهذا البرج عرضه أكبر بعض الشيء من ارتفاعه، ولكن لكونه مرتفعاً فوق صخرة تعلو ستمائة متر فوق سطح البحر، فهو يشمخ عالياً في سماء الريف، وأحياناً ما كانت تأتي لمستريح فيه - للحظة - سحابة بيضاء من سحب شهر يوليو.

فهو ليس جبلاً إذن، ولكنه ليس تلاً كذلك، هذا الجارليان، الذي أوقد فيه رجال استطلاع ماريوس النار في المحطب، عندما رأوا في عمق الليل بريق نار على قمة القديس فكتوار، وهي النار التي طارت من كثيب لكثيب، في ليل يونيو، لتحط أخيراً على صخرة الكايتول، نزف إلى روما أن متطوعيهما في أراضي غالة أجهزوا بالذبح، في وادي إكس، على المائة ألف بربري من التوتوبوشوس الوثنيين.

كان أبي هو الطفل الخامس لحجار من فالريا، على مقربة من أورانج، وقد استقرت العائلة في هذا المكان منذ عدة قرون. أما من أين جاءت ؟ فقد جاءت من إسبانيا بالقطع، لأنني وجدت في أرشيفات العمدية تسميتها أولاً بعائلة اللسباني، وبعد ذلك الإسباني.

أضف إلى هذا، أنهم كانوا صناع سلاح. أياً عن جدّ، وكانوا يقسّون أسنة

السيوف بغمسها في مياه مجري الأوفيز التي يعلوها الدخان، وهو العمل الذي كان احتكاراً إسبانياً صرفاً كما يعلم الجميع.

غير أن الحاجة للشجاعة انقلبت نسبياً بما باعد في عملية الالتحام بين المقاتلين، فحلت الغدارات والطبنجات محل السيوف الطويلة والمهتدة. مما جعل أسلافي يعملون بمجال الأسلحة النارية، أي يتحولون لصناعة البارود، والخرطيش والبنادق.

أحدهم، وهو سلف يعيد لأبي، طار ذات يوم من دكانه، عبر نافذة مغلقة، في مهرجان من الشرر، تحيطه الهالات الشمسية المدرومة، على حزمة من السهام النارية. ولم يمت، لكن خذه الأيسر لم تعد لحيته تنمو عليه بعدها. وهو السبب الذي جعل البعض يطلقون عليه حتى نهاية حياته لقب لوروستي وهو ما يعني المسلوخ.

وربما كانت هذه الحادثة الاستعراضية هي السبب الذي جعل الأجيال التالية في عائلتي تقرر -بغير التخلي عن الخرطيش والبنادق- ألا تعمل في تجهيز البارود بعد ذلك، وفضلوا العمل بصناعة الكرتون، وهي الصنعة التي يخترفونها لليوم.

إنه مثال رائع للحكمة اللاتينية، فقد عملوا أولاً في صناعة الصلب وهو مادة ثقيلة، صلبة، وقاطعة، ثم في البارود، الذي لا يحتمل سيجارة مشتعلة إلى جواره، ثم كرسوا جهدهم للكرتون، وهو المنتج الخفيف، الطيع، رقيق الملمس، والذي هو في كل أحواله غير قابل للانفجار.

إلا أن جدي، الذي لم يكن الابن البكر لأبيه، لم يرث معمل الكرتون، وصار لسبب لا أدريه، حجاراً. لذا، فقد جال في فرنسا كلها، وانتهى به المطاف إلى فالريا، ثم إلى مرسيليا.

كان رجلاً قصيراً، عريض المنكبين، قوي العضلات. وحين عرفته، كان شعره الأبيض طويلاً يتدلى إلى رقبته، وكانت لحيته كبيرة مجمعة، وتقاطيع وجهه ناعمة، لكنها محدّدة جداً، وعينه السوداءن تلمعان كزيتونتين فجتين .

كانت سلطته رهيبة على أبنائه، وقراراته لا رادَ لها. لكن أحفاده لهم دلال عليه، فيجدلون لحيته، أو يضعون له الفاصوليا في أذنيه. وقد حدثني، بعض الأحيان، بوقار شديد عن مهنته، أو بالأحرى عن فنه، لأنه كان معلم تركيب أحجار.

لم يكن يكنّ تقديراً كبيراً للبنايين : « فنحن - كان يقول - نقيم الحوائط بالأحجار المتوافقة، أي المدمجة ببعضها بدقة، الواحدة في الأخريات، بالذكر والأنثى فنعالجها بالتنعيم، وتركيب العاشق والمعشوق، آية اللحمة الإلهية... نعم، نحن نصهر الرصاص في المجاري الفاصلة بينها، لكي يمنع انزلاقها، لكنه يكون ملبساً بين كل كتلة وأخرى، فلا يرى. بينما يستعمل البناؤون الأحجار كما هي، ويسدون الفجوات بينها بكميات الملاط... فالبناء، دافن أحجار، وهو يوارىها لأنه لم يعرف كيف يفصلها.

كان إذا قُدّر له الحصول على يوم إجازة - ولم يكن ذلك يحدث أكثر من خمس أو ست مرات في العام - يصطحب عائلته للغداء في الخلاء، على بعد خمسين متراً من جسر الحراسة «بونت دي جارد» . وأثناء إعداد جلتي للطعام، وتوَحّل الأطفال في النهر، كان يصعد على قاعدة النصب، حاملاً مازورته التي يقيس بها، يختبر التحام الأحجار، ويعالج الآثار التي لحقت بها، ويتحسسها.

عقب الطعام، كان يجلس على العشب، أمام العائلة المتحلقة في قوس في مواجهة العمل المعماري الفريد التليد، إلى أن يحين المساء، وهو ينظر إليه. لذا، فبعد مرور ثلاثين عاماً على تلك الفترة، كان أبنائوه وبناته يرفعون أعينهم صوب السماء، عند ذكر اسم بونت دي جارد، وهم يتنهدون طويلاً.

لدي على مكتبي نقالة ورق نفيسة، عبارة عن متوازي مستطيلات من

الحديد، مثقوب في منتصفه بفجوة بيضاوية، وفي كل طرف من أطرافه قمع محفور يعمق في المعدن الكاوي. إنها مدقة جدي أندريه، التي دقت خلال خمسين عاما الرأس الصلدة لمقص الصلب.

هذا الرجل الحاذق لم يترك في حياته سوى قسط قليل من التعليم. فقد كان يعرف القراءة ويوقع باسمه، ولكنه لم يتجاوز ذلك. لذا فقد عانى فيما بينه وبين نفسه طيلة حياته، وانتهى إلى الاعتقاد بأن العلم هو أعلى درجات السيادة، وتصور أن البشر الأعلى ثقافة هم الذين يعلمون الآخرين. والذي نؤف من أجل هذا شرايينه الأربعة لكي يلحق أبناءه بسلك التعليم، مما جعل أبي في سن العشرين، يتخرج من مدرسة المعلمين بإكس أن بروفانس، ويصبح معلماً بالمدارس العامة.

كانت مدارس المعلمين في تلك الحقبة مدارس إكليريكية بمعنى الكلمة، على الرغم من أن دراسة اللاهوت فيها حلت محل دروس مضادة لللاهوت. كانت هذه الدروس تلقن الشباب الصغار أن الكنيسة لم تكن أبداً إلا أداة للظلم. وأن هدف ومهمة القساوسة هو تعليق عصابات الجهل السوداء على أعين الشعب، بتزويد حكايات الجحيم والفراديس على مسامعه. فضلاً عن أن الطوبى السيئة للقساوسة كانت مثبتة في هذه الدروس بسبب استخدامهم للغة اللاتينية، اللغة الغامضة، التي يخشى المؤمنون الجهلاء من قدرتها الغادرة على صناعة التعاويذ السحرية.

أما البابوية فقد أخذ مثلاً عليها في الأيوين بورجيا، ولم يكن حال الملوك بأفضل من حال البابوات، فهم هؤلاء الطغاة الغرائزيون الذين ليس لديهم ما يشغلهم سوى عشيقاتهم عندما يفرغون من لعبة الكرة القرن [البيليوكيت]، بينما يطلقون أتباعهم الشريرين في جباية الضرائب الساحقة التي كانت تصل إلى عشرة بالمائة من عائدات الأمة.

وكان معنى ذلك أن دروس التاريخ كانت هي الأخرى مزورة إذا أعملنا

فكرة الحقيقة في النهج الجمهوري.

ولست أقدم هنا مظلمة للجمهورية، فكل سجلات تاريخ العالم لم تكن أبداً إلا دفاتر دعاية في خدمة الحكومات.

كان طلاب مدارس المعلمين النضريين الأساس يعتقدون إذن بأن الثورة العظمى مثلت حقبة من الحب العذري، وعصراً ذهبياً للشهامة، والأخوة التي بلغت حد الرقة، فهي انفجار الوداعة.

ولست أدري كيف سردوا عليهم -بغير أن يسترعي انتباههم - أن هؤلاء الملائكة العلمانيين يعد عشرين ألف اغتيال أعقبها السرقة، فصللوا رؤوس بعضهم البعض بالمقاصل.

على الناحية الأخرى، حدث بالفعل، أن قسيس قريتي، الذي كان شديد الذكاء، اعتبر، في مروءة لا يمكن رفضها، أن محاكم الهراطقة في زمن سطوة الكنيسة كانت نوعاً من مجلس العائلة، فقد ذكر أن الأساقفة قاموا بإحراق بعض اليهود والعلماء وهم يلترفون الدموع عليهم، لكي يؤمنوا لهم مكاناً في الجنة.

وتلك هي نقطة الضعف في منطقنا، فهو لا يقوم في الأغلب الأعم سوى بتبرير اعتقاداتنا.

« » « » « »

يبد أن دراسات هؤلاء الطلاب في مدارس المعلمين لم تنحصر في مناوأة اللاهوت، وتكريس التاريخ العلماني. فقد كان هناك عدو ثالث للشعب، لم

يكن موجوداً بالمرّة في الماضي، وهو الكحول. فتلّك كانت هي الحقبة التي تؤرّخ كتابة رواية الهراوة الثقيلة لزولا، ولوحاتها المخيفة التي افترشت حوائط الفصول.

في هذه اللوحات كنت ترى صور الأكباد قليلة الاحمرار غير واضحة المعالم، بسبب انتفاخاتها الخضراء واختناقاتها البنفسجية التي تجعلها شبيهة بدرنة السّل، ولزيد من الإمعان في توضيح كارتيتها، كان الفنان يرسم في منتصف اللوحة صورة للكبد السليم النضر للمواطن الصالح، الذي يتألّق بتناسق أجزائه وطغيان اللون الأحمر عليها، مبرزاً عند المقارنة مدى خطورة المصائب المبيّنة.

وكان طلاب مدارس المعلمين، الملاحقون حتى عنابر نومهم بهذه الصور البشعة للأحشاء (بغير أن نسهب في الحديث حول البنكرياس الذي له شكل لولب أرشميدس، والشریان الأورطي المتفسخ بالفتوق) يصيبهم الرعب شيئاً فشيئاً، ليجعل من مجرد رؤيتهم لكأس من الخمر أمراً يشعّره بالغبان.

كانت شرفات المقاهي ساعة تناول كؤوس المشهيات، تبدو لهم كأنها صالات لاجتماعات طلاب الانتحار. ذات يوم قلب لهم المناضد واحد من أصدقاء أبي، وكان ثملاً من شرب الماء القراح، بفعل التعصب العلماني. فقد كانوا يعتقدون أن هؤلاء التعساء سيرون في سكرهم الفئران تطير عبر الحوائط، أو يلاقون، في هذيانهم، الزراف في ساحة ميرابو. وكان أحدهم يقص حكاية عن عازف كمان كان على درجة كبيرة من الألمعية، صغر شأنه وصار عازفاً للماندولين لأن نخاعه الشوكي صار غارقاً في الكوكتيل. لكن ما كانوا أكثر شراسة في كراهيته، هو هذه المشروبات المسماة بالمهضومات، وأنيد البركة، وأنيدة الأديرة، والخمور الحاصلة على علامة امتياز الملك التي وُحّدت، في ثلاث شنيع، الكنيسة، والكحول، والملكية.

وباستثناء النضال ضد هذه الدواهي الثلاث، كان برنامج دراساتهم ضحماً جداً، ومعنياً على نحو رائع بأن يجعل منهم المعلمين العوام، الذين يحسنون الفهم، بما أنهم كانوا جميعهم تقريباً أبناء فلاحين أو عمال.

فقد كانوا يلقون ثقافة عامة، واسعة بالطبع أكثر منها عميقة، لكنها كانت حديثة جداً، ونظراً لأنهم رأوا آباءهم يهلكون في العمل إثنى عشرة ساعة في اليوم، بالحقول، والسفن، وعلى الصقالات، كانوا يغبطون أنفسهم لقدرهم السعيد، فقد كان بوسعهم التنزه أيام الآحاد، والحصول على إجازات ثلاث مرات في العام، تعيدهم إلى بيوتهم.

في هذه الإجازات، كان الآباء والأجداد، وفي بعض الأحيان الجيران -الذين لم يتعلموا شيئاً سوى الاعتماد على أنفسهم- يأتون إليهم ويطرحون عليهم الأسئلة، والملمغزات الصغيرة، التي لم يستطع أحد في القرية أن يحلها. وكانوا يجيبون، ويستمتع لهم القدامى في وقار، وهم يهزون رؤوسهم... مما كان يحفزهم خلال ثلاثة أعوام لأن يلتهموا العلم التهاماً، بوصفه ذلك الغذاء النفيس الذي حرم منه أسلافهم، وهو الأمر الذي كان يدعو مدير المدرسة، للمرور على قاعات الدروس أثناء الفسحة، ليتصيد منهم بعض الطلاب النجباء ويعاقبهم بالحكم عليهم بأن يلعبوا الكرة.

وكان عليهم، في نهاية دراستهم، خوض امتحان الدبلوم العالي، الذي كانت نتيجته معروفة سلفاً.

بعدها، وعلى طريقة شق الثمار الفجة لكي تنضج، كان يتم نشر البذرة الطيبة في أنحاء الإقليم الأربعة، للنضال فيها ضد الجهل، ولإسباغ المجد على الجمهورية، والاعتداد بعدم خلع القيّعات عند مرور المراكب.

وبعد عدة أعوام من بعثته الرسولية العلمانية، في جليل العزب الجبلية الضائعة، كان المعلم الشاب ينزل مسافة نصف ميل حتى القرى، حيث يتزوج،

مروءا، بالمعلمة أو موظفة البريد. بعد ذلك كان يمر على عدد من البنادر تلك ذات الشوارع المائلة، التي كانت كل منها تترك في حياته ذكرى ميلاد طفل له، وعند الطفل الثالث أو الرابع، كان يصل إلى المقاطعات الفرعية في السهل، التي يتدرج فيها إلى أن يعمل أخيراً في مركز من المراكز، بعد أن يكون جلده قد تجعد، تحت تاج من الشعر الأبيض. عندئذ كان ينتقل للتدريس في مدرسة من ثمانية أو عشرة فصول، ويدير فصلاً عالياً، وأحياناً فصلاً تكميلياً.

ثم كان يجيء يوم، يحتفلون فيه بانتصاراته الأكاديمية، وبعدها بثلاثة أعوام، «يحصل على تقاعده»، أي أن هذه القاعدة تطبق وتدور الدائرة عليه. عندها، كان يقول وهو يبتسم في سعادة: «أخيراً سأفرغ لزراعة كرنبى ١».

ومن ثم ينام، ويرقد رقلته الأخيرة.

ولقد عرفت كثيراً من هؤلاء المعلمين فيما مضى .

كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بجمال مهمتهم، ولهم ثقة وضأة في مستقبل الجنس البشري، وكانوا يحتقرون المال والفخفة، ورفضون الترقية لكي يدعوا المكان للآخرين. أو لكي يواصلوا إكمال مهمتهم التي بدأوها في قرية محرومة.

أحدهم، وهو صديق عجوز جداً لأبى، تخرج الأول على مدرسة المعلمين، وأجبره صنيعة هذا لأن يبدأ عمله في أحد أحياء مرسيليا، وهو حي يشغى بالقمل والبؤساء، لا يجسر أحد على تعريض نفسه فيه للخطر بالسير ليلاً، وظل بهذا الحي من بداية تعيينه وحتى إحالته للتقاعد، أربعين عاماً في نفس الفصل الدراسي، أربعين عاماً في نفس المقعد...

ذات مساء سأله أبى :

- هل كنت تخيا بلا طموح طيلة تلك المدة ؟

- أوه لا ! قال، بل كنت طموحاً جداً؟ وأعتقد أنني حققت طموحي !

ضع في حسابك أن سلفي، خلال عشرين عاماً، شهد الحكم بالإعدام على ستة من تلاميذه. أما أنا، فخلال أربعين عاماً، لم يحكم بالإعدام سوى على اثنين من تلاميذي والثالث تم العفو عنه. وكان ذلك أمراً يستحق العناء.

ولعل أكثر الأشياء جدارة بالملاحظة، أن هؤلاء المناوئين للأهوت كانت لهم نفوس المبشرين، فلكي يحيطوا بالإخفاق مهمة السيد القسيس (الذي اعتبرت فضيلته رونكا)، عاشوا هم كالقديسين، وكانت أخلاقهم أكثر جموداً من أخلاق المتطهرين الأوائل. وكان السيد مفتش الأكاديمية هو مطرانهم، ورئيس المدرسة العليا كبير أساقفتهم، وكان بطريركهم هو السيد الوزير، الذي كانوا لا يكتبون له إلا على ورق خاص، ويصيغ متواترة.

«مثلنا مثل الرهبان» قال أبي، «نحن ندعو للحياة المقبلة، لكننا نعمل من أجل حياة الآخرين». لأنه قد تخرج هو الآخر بترتيب مرموق، لم تُشتت حركة التعيينات بعيداً عن مرسيليا، ورست به في أوبان.

() () ()

كانت أوبان بندراً صغيراً من عشرة آلاف نسمة، يعيشُ في سفح وادي الهوفون، ويقطعه الطريق المغبر الواصل بين مرسيليا وطولون. وفي أوبان، كانوا يصنعون القرميد، والطوب، والجرار، ويأكلون أمعاء الخنزير والبمبار، ويعملون بدباغة الجلود التي لا تتلف، بتعتيقها لسبع سنوات. كما كانوا يصبون تماثيل القديسين الصغيرة التي تباع في الأعياد.

وكان أبي، الذي يدعى جوزيف، في ذلك الوقت، شاباً أسمر، متواضع

الطول، دون أن يكون قصيراً، ذا أنف ضخم بعض الشيء، لكنه كان مستقيماً، مهذباً لحسن الحظ من الجهتين، بشاربه ونظارته ذات العيونات البيضاء المحاطة بأطر من الصلب. وكان صوته أجشّ ومرحاً، وشعره، الأسود المائل للزرقاء من النوع الذي يتموج بالطبع في الأيام الممطرة.

وقد التقى في يوم من أيام الأحاد بفتاة تعمل حائكة كانت تدعى أوجستين، ووجدها جميلة بما يجعله يتزوجها من فوره.

ولم أعرف أبداً كيف تعارفا، لأن أحداً لم يتحدث عن هذا الشيء في البيت. أضف إلى ذلك، أنني لم يحدث أن سألتهم في هذا الأمر، فلم يخطر على بالي أبداً لأشابههم ولا طفولتهم.

لقد كانا أبي وأمي، ومن الأزل وإلى الأبد، كان هو يكبرني بخمس وعشرين عاماً، ظلت على ما هي عليه لم تتغير بالمرة، أما عمر أوجستين، فقد كان هو عمري، لأن أمي كانت هي أنا، وقد اعتقدت في طفولتي، أننا ولدنا معا أنا وهي في نفس اليوم. أما عن حياتها الأسبق على هذا الميلاد، فلا أعرف سوى أنها انبهرت بلقائها بهذا الشاب ذي المظهر الجاد، والذي كان يجيد إصابة الهدف في اللعب بالكرات الحديدية، ويَقْبِض بانتظام أربعة وخمسين فرنكاً شهرياً. لذا استغنت عن الخياطة للآخرين، واستقرت في شقة مريحة لا سيما وأنه حصل عليها من المدرسة، ولم يكن يدفع فيها إيجاراً.

في الأشهر التي سبقت مولدي، ولأنها لم تكن قد تخطت التسعة عشر عاماً - ظلت فارقاً بيني وبينها طيلة عمرها - أصابها قلق شديد، وأعلنت وهي تنحب أن طفلها لن يولد أبداً، لأنها شعرت بوضوح أنها لن تعرف كيف تخرجه للحياة. وحاول أبي أن يعيدها لعقلها، لكنها قالت له، وهي مفتاةة : «كلما فكرت في أنك أنت الذي فعلت بي هذا !».

وذهبت في الدموع.

ولما بدأ القادم يتحرك في بطنها، كانت تأتينا نوبات من الضحك المجنون، تتخلل نحيبها. وتحت تأثير رعبه من هذا السلوك غير المتزن، طلب أبي نجدة شقيقته الكبرى. وكانت هي التي رتبته. كما كانت (بطبيعة الحال) مديرة مدرسة في (لاسيوتا). وكانت امرأة عازية.

ورحبت الشقيقة الكبرى. وقررت أنه يجب في الحال أن تصطحب أمي للإقامة عندها، في اللفا اللاتيني، وهذا ما تم تنفيذه في اليوم نفسه.

قيل لي إن جوزيف قد سعد جداً بهذا الموضوع، وأنه أفاد من حريته هذه في محاولة الإيقاع بالخبازة التي كان يقوم بضبط حساباتها، وهي حكاية هازلة، لم أقبل بها أبداً.

خلال هذه الأثناء، كانت الأم المقبلة تنزه على طول الشواطئ، تحت سماء يناير الناعمة، وهي ترقب في البعد أشعة الصيادين التي ترحل في الساعة الثالثة مساء صوب شمس الغيب. أو تجلس على مقربة من النار التي تنفث اللهب الأزرق المنبعث من احتراق أخشاب الزيتون، وهي تطرز أربطة السليل الحي المقبل، بينما كانت العمدة ماري تلف أقمطته، وهي تغني بصوتها الجميل :

فوق الفلوكة التي يرقصها الموج

والليل ينشر شراعه الأسود الكبير

لقد هدأت وسكن روعها على هذا النحو، بقدر ما كان عزيزها جوزيف يجيء لزيارتها كل يوم سبت، على دراجة الخبازة، آتياً معه بقراميش اللوز، والكريمة، وبكيس من الدقيق الأبيض لصناعة الفطائر والزلاية. مما يؤكد أن الخبازة لم تكن تشكو منه في شيء .

وأحدث التدليل. والراحة الطويلة، وهواء البحر المتوسط الصحي الرقيق، تحولات في أوجستين الشابة، فقد صار لون بشرتها جميلاً. ويبدو أنها صارت

تُغني كل صباح عند استيقاظها.

كل شيء كان يسير إذن على أفضل ما يكون، حتى ذلك الصباح الباكر للثامن والعشرين من فبراير، عندما استيقظت الأم على بعض الآلام.

ونادت من فورها على العمة ماري، التي أعلنت أن لا شيء يدعو للقلق. بما أن الطبيب قد أخبرهما أن موعد الولادة سيكون في نهاية مارس، وأن القادم سيكون بنتاً. ومن ثم أعادت إشعال النار لتغلي بعض الأعشاب. لكن المريضة أصبرت على أن الأطباء لا يفهمون شيئاً، وعلى أنها تريد العودة فوراً لأوبان.

- لا بد أن ألد في بيتي ! أنا بحاجة لأن يمسك جوزيف بيدي ! ماري، ماري، هيا بنا نرحل فوراً ! أنا متأكدة أن الطفل يريد الخروج.

وحاولت ماري الرقيقة تهدئتها بالقول وبشراب التيول. وقالت والمصفاة في يدها : إنه إذا كان الأمر أكيداً بالنسبة لها، ذهبت من فورها لتعلم السمك، الذي يذهب كل يوم لأوبان حوالي الثامنة صباحاً، لكي يأتي بجوزيف بسرعة الريح، على الدراجة.

لكن أوجستين أزاحت يدها فنجان التيول ووضعت وجهها على راحتيتها وكتت بدموع غزيرة. عندها، ذهبت العمة ماري وقرعت زجاج نافذة أحد الجيران، كان يمتلك كارتة وحصاناً صغيراً، ولقد كان ذلك الزمن زمناً مباركاً، إذ كان الناس فيه يخدمون بعضهم البعض، فلم يكن للمرء إلا أن يطلب ما يريده.

وشد الجار جواده للعربة، ولفت العمة أوجستين بالشيلان. ورحنا نخب معاً على الطريق، بينما كانت تصطحبنا من وراء أشجار الصنوبر نصف شمس كبيرة حمراء، كانت تعطي قمم التلال.

عند وصولنا إلى بيدول. وكانت في منتصف الطريق تماماً، عادت الآلام من جديد، وذعرت العمة بدورها. وضمت بين ذراعيها أُمي المتدثرة، وراحت

تعطيها النصائح :

- أوجستين. تخشعي، فقد كانت هي بعد عذراء.

لكن أوجستين، التي كانت تنفصد عرقاً، فتحت عينيها السوداوين الكبيرتين، وزفرت بشدة وهي تن.

كنا لحسن الحظ قد بدأنا نفتح الرحم بينما كان الطريق يهبط إلى أويان. وأرخصى الجار فرملة عربته، وهي الكابح الذي كانوا يدعونه بالميكانيكي، وساط الجواد الصغير، الذي لم يكن له مفر من أن يجري تحت وزن حملته.

ووصلنا بالضبط في الوقت، الذي كانت فيه السيدة نيجرين الداية قد جاءت على عجل لتخليص أمي، التي غرزت أصابعها أخيراً في الأذرع القوية لجوزيف.

⟨ ⟩ ⟩

هذه الحكاية ليست مذهشة إلى الآن، لكن صبرك عليّ دقيقة أيها القارئ، بما أنها ستكون كذلك.

في مطلع القرن الثامن عشر، كانت في أويان عائلة من التجار شديدة الثراء والقدم، تدعى عائلة بارثولومي. وقد ذاع صيتها حتى أن الملك اضطر ذات يوم لأن يرفعها إلى مرتبة النبالة.

إلا أنه، في ليلة التاسع والعشرين من يناير ١٧١٦، شعرت السيدة بارثولومي، التي كانت صغيرة السن، وتقطن أويان، ولها زوج يدعى جوزيف «بالآلام الأولى للمخاض». فركبت على عجل عربة بحصان، لكي تذهب لدى

أمها في بيت العائلة، الذي كان أجمل بيت في «كاسيس».

كانت «كاسيس» مرفأً صغيراً للصيد، وضاحية من ضواحي لاسيوتا، وكان نفس الطريق الذي يقود من مرسيليا لأويان هو طريقهم في ثلاثة أرباع الرحلة.

عبرت السيدة بارثولومي إذن المضائق، ثم مرت بمنعطف بيدول، وهي تكن تحت الأغطية... ثم وصلت إلى كاسيس مغشياً عليها من الألم، وأثناء ما كانوا يضعونها في السرير، وضعت طفلاً.

هذا الطفل من أويان صار هو نفسه الأب بارثولومي، المؤلف الشهير وصاحب كتاب «رحلة ناسك شاب إلى اليونان»، والذي انتخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية في ٥ مارس ١٧٨٩، للمقعد الخامس والعشرين، وهو نفس المقعد الذي كان لي شرف الحصول عليه، في الخامس من مارس في عام آخر تلا.

ويمكن استخلاص نتيجة فريدة، من هذه الطرفة المزدوجة، وهي أن واحدة من الطرائق الممكن اتباعها للحصول على مكان ضمن النخبة اللامعة، أن تكون ابناً لشخص يدعى جوزيف، وأن تحاول أن تولد في صباح باكر من أصابيع الشتاء، في عربة صغيرة يحصان تتأوه مع تأوه أمك، على طريق بيدول.

قليلة هي ذكرياتي عن أويان، فلم أعش فيها سوى ثلاث سنوات.

وأول ما يحضرني منها في الذاكرة نافورة عالية جداً، تعلوها ليلابات الأفنية، وكانت أمامي بيتاً مباشرة، إنها النصب الذي أقامه مواطنو أويان للأب بارثولومي، الذي كان ينظر إليه كواحد من رجال اليسار، بسبب كتابه «رحلة ناسك شاب»، وهو الكتاب الذي قرأه القليلون، وكان الكثيرون يطلقون عليه، بكل حسن نية : «الشاب الفوضوي» [نظراً لبعض التشابه بين كلمة الناسك-AN ACHARSIS، وكلمة فوضوي ANARCHISTE بالفرنسية - المترجم]. ولقد

كنت أجهل الأب بارثولومي بالطبع، في تلك الحقبة ولكنني كنت أنصت
بانتباه لشقشقة النافورة، التي كانت تزقزق مع عصافير الدوري.

تخضرنني كذلك بعد النافورة مباشرة، صورة سقف يسقط فوقي بسرعة
مدوّخة، بينما أُمّي تصرخ مرتعبة : « هنري ! أنت أبله ! هنري ! أنا أمنعك ... »
ذلك لأن خالي هنري كان قد قذف بي عاليا في الهواء، ولحق بي وأنا أطيّر،
وكنت أصرخ من الفزع، ولكنني صحت، عندما استعادنتي أُمّي بين ذراعيها :
كمان، كمان !

كان خالي هنري في الثلاثين من عمره، ذا لحية جميلة سمراء، وكان
يعمل ميكانيكيا في آلات البخار، التي كان يشتغل في إنشائها بورش فورجييه
وشانتيه، وهو العمل الذي كان يحرقه قلبه جدي لأُمّي الذي لم أعرفه أبدا.

ولد جدي هذا في كوتانس، حوالي ١٨٤٥ ، وكان يدعى جيوم لانسو.
وهو من أصل نورماندي خالص، وقد إلى مرسيليا في جولة له حول فرنسا،
وأعجبته جدتي المرسيلية، فظل.

وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره كان قد رزق بثلاثة أطفال، كانت
آخرهم وأصغرهم أُمّي. ولأنه كان يجيد مهنته، ولم يكن يخشى البحر، أرسلوه
يوما إلى ريودي جانيرو، لكي يصلح سفينة بخارية تعطلت ماكيناتها، وذهب إلى
هذا البلد البدائي بلا تطعيم من أي نوع، فشهد هناك الناس الذين يموتون
بالحمى الصفراء، وبشكل أحمق، أصيب بالعدوى، ومات.

ولم يسعف الزمن أطفاله بمعرفته، كذلك جدتي، فلم تكن زوجة له إلا
لأربعة أعوام، لذا لم يكن لديها شيء كبير تقصه لنا عنه، اللهم إلا أنه كان
عملاقا وكانت عيونُه في زرقَة البحر وأسنانه بيضاء، وأن يياضه كان ضاربا
للحمرة، وكان يضحك بلا سبب، كالأطفال.

وليست توجد لديّ حتى صورة فوتوغرافية لجديّ هذا، وفي بعض الأحيان،

في الأماسي، بالريف، وأمام المدفأة، أحاول أن أكون في مخيلتي صورة عنه، لكنني لا أفلح، ولا يجيء. فهو هناك بعد في الأمريكتين.

في هذه اللحظات وأنا وحدي، أرقب النيران، أفكر في جدي ذي الأربعة وعشرين ربيعاً، والذي مات بغير عوينات، وبأسنانه الكاملة، وشعره الذهبي الكثيف، يدهشني أن أكون أنا، هذا العجوز، حفيد شاب صغير السن عملاق من كوتاس.

ذكرى أخرى تحضرني من أوبان. هي ذكرى مباريات لعب الكرات الحديدية تحت لبلابات الميدان الصغير، حيث كان أبي، ضمن البارعين الآخرين، يقفز قفزاته الإعجازية، ويقذف بكمية من الكرات إلى أبعاد غير متخيلة، وسط التصفيق الحاد بعض الأحيان. تلك اللعبة التي كانت تنتهي دائماً بأن يسب البارعون بعضهم البعض، بزعم أنه كانت هناك مكيدة التوت بسببها أيديهم، ولكنهم لم يحدث أن تعاركوا أبداً.

﴿ ﴾ ﴾

من أوبان انتقلنا إلى سان - لو، التي كانت قرية كبيرة في ضواحي مرسيليا. وهناك كان يقع أمام المدرسة مباشرة المذبح التابع للبلدية، الذي لم يكن سوى عتير به جزاران هائلان يقومان بعمليةهما على الملأ.

وبينما كانت أمي تشغل بأعمالها المنزلية الصغيرة، كنت أشب على مقعد، أمام نافذة غرفة الطعام، أشاهد اغتيال الأبقار والخنازير بشغف شديد.

إنني أعتقد أن الإنسان متوحش بطبيعته، فالأطفال والبدائيون يقدمون الدليل على ذلك كل يوم. فعندما كانت البقرة المسكينة تتلقى ضربة البلطة بين

قزنيها، وتخر على ركبتيها، كانت تبهرني فقط قوة الجزار، وانتصار الإنسان على الحيوان.

وكان قتل الخنازير يضحكني حتى يطفر الدمع من عيني، لأنهم كانوا يجررونها من آذانها، وهي تطلق الصرخات ذات الصرير. لكن العرض الذي كان أكثر إثارة بالنسبة لي. كان عرض ذبح الخراف.

فقد كان الجزار يجز برشاقة حلقومها، وهو منشغل بإكمال حديثه مع مساعده، بغير أن يولي اهتماماً يذكر لما يفعله. وعندما ينتهي من قطع رقاب ثلاثة أو أربعة خراف، كان يسحب الجثث خارجاً لتزفر أنفاسها الأخيرة. ومن ثم، وبواسطة منفاخ، ينفخها بطريقة تدعو للعجب، ليسلخ الجلد عن اللحم، فكنت أتصور أنه يحاول أن يصنع منها بالونات، وكنت أمني نفسي بأن أراها تطير. لكن أمي التي كانت بتجيء كل مرة في أهم اللحظات، كانت تجعلني أنزل من مرصدي الذي أرقب منه، وتسمعي لغواً غير مفهوم أثناء تقطيعها اللحم الذي ستطبخ به، حول رقعة الأبقار المسكينة، ولطف الخراف المجمعة، وشراسة هذا الجزار.

وعندما كانت تذهب للسوق، كانت تتركني في طريقها بفصل أبي، الذي كان يدرس القراءة للأطفال في سن السادسة والسابعة، وكنت أظل جالساً هادئاً، في أول صف، وأنا معجب بالمقدرة الأبوية الفائقة. وكان هو يمسك بعضاً من الخيزران، يستخدمها في الإشارة على الحروف والكلمات التي يكتبها على السبورة السوداء، وأحياناً كان ينقر بها عدة مرات رأس تلميذ بليد غير مصغ.

ذات صباح، أودعتني أمي مكاني بالفصل، وذهبت بغير أن تقول شيئاً لأبي، الذي كان في تلك الأثناء يكتب بخط جميل على السبورة : «عاقبت الأم ابنها الصغير، الذي لم يكن مؤدياً»

وما إن وضع نقطة جميلةً مستديرة في نهاية الجملة، حتى صحت أنا: لا، هذا غير صحيح! التفت أبي فجأة، ونظر لي في دهشة، وصاح بي: «ماذا تقول؟»

- أمي لم تعاقبني، وما كتبته غير صحيح! وتقدم أبي ناحيتي:

- ومن قال إنك عوقبت؟

- هذا ما كتبته. وشئت المفاجأة لسانه للحظة:

- نعم نعم، وأردف، هذا يعني أنك تعرف القراءة؟

- أجل أعرف.

- سنرى، سنرى... ردّد هو. وأدار طرف الخيزرانة جهة السبورة السوداء.

- حسنا، اقرأ. وقرأت الجملة بصوت عال.

عندئذ ذهب وأحضر كتاباً في الهجاء، قرأت له فيه ييسر عدة صفحات... وفيما أظن أنه عاش في ذلك اليوم أكبر فرحة عاشها في حياته، وشعر بأقصى اعتدادٍ مرّ به.

في عودة أمي من السوق، وجلتني جالساً وسط أربعة مدرسين، صرخوا تلاميذهم لحوش المدرسة وراحوا يستمعون لي في هدوء وأنا أتهجّي حكاية القطة الصغيرة... لكنها، بدلاً من أن يعجبها هذا الصنيع، امتقع لونها، ووضعت أكياسها على الأرض، وأغلقت الكتاب بين أيديهم، وحملتني بين ذراعيها وهي تغمغم: يا إلهي... يا إلهي!

وقامت الفراشة، التي كانت واقفة أمام باب الفصل، وكانت امرأة عجوزاً كورسيكية، يرسم إشارة الصليب على صدرها، وعرفت فيما بعد أنها هي التي راحت تفتش عن أمي مؤكدة لها أن هؤلاء السادة سوف يتسببون لي في انفجار

بالدماغ.

على طاولة الطعام أكد أبي أن هذه الفكرة لا تعدو أن تكون نوعاً من التطير يدعو للسخرية، وأنتي لم يحدث أن ضغط عليّ أحد، وقد تعلمت القراءة على طريقة الببغاء التي تعلمت الكلام، ولم يكن هو نفسه يتوقع هذا. ولم تقتنع أُمي بهذا، وكانت من وقت لآخر تضع يدها الباردة على جبهي تتحسسها وهي تسألني : هل توجعك رأسك ؟ ... ولم يكن عندي وجع بالرأس. لكنني لم يعد مسموحاً لي، حتى من السادسة، بالذهاب للفصل، ولا بأن أفتح كتاباً، خشية أن يصيبني انفجار بالمخ. ولم يطمئن قلبها إلا بعد ذلك بعامين، في نهاية مرحلتي الدراسية الأولى، عندما أخبرتها معلمتي بأنني كنت موهوباً وذا ذاكرة مذهشة، رغم أن عقلي ظل عقل طفل في المهد.

{ } { } { }

من سان - لو، قفز أبي قفزة شهاب طائر، فقد تخطى الضواحي كلها دفعة واحدة، وعين - في ظل دهشته الكبرى - معلماً على درجة أساسية بمدرسة (طريق الشارترين)، وهي أكبر مدرسة عامة بمرسيليا.

كان يرأسه مدير متفرغ. وهي الوظيفة التي كانت تشبه وظيفة مراقب عام. وكان بإمكانه الذهاب ومقابلة السيد مفتش الأكاديمية بغير أي استدعاء، وصار عضواً بلجنة امتحانات الشهادة الابتدائية. كما صار يعين أحياناً عضواً بلجنة امتحانات الشهادة الإعدادية. فضلاً عن أن فراش هذه المدرسة ذكر لأبي المأخوذ، أسامي، أن دُيِّنة المدرسين بمدرسة الشارترين هم في العادة «نخبة الأساتذة»، وأن هؤلاء المختارين، مع نهاية خمس أو ست سنوات من العمل،

يعينون مباشرة مدراء، وفي أغلب الأحيان بمرسليها نفسها.

كان لتصريح فراش مدرسة طريق الشارترين هذا وقعٌ على أفراد عائلتي، فلم تكف أمي - الفخورة للغاية - عن إعادة ذكره أمام السيدة ميرسييه والأنسة جويمار، وهي تضيف من عندها أن فراش المدرسة، ربما كان يغالي بعض الشيء، أي أنها لا تميل لتصديقه.

كانت دائماً شاحبة وهشة، لكنها كانت سعيدة مع جوزيفها وأولادها وماكينته حياكتها الجديدة. هذا الاختراع العجيب الذي مكّنتني من مساعدتها في أعمالها. فكنت أركع تحت المنضدة الصغيرة، أمام ذيل ثوبها، وأحرك بيدي لوح البدال الذي كنت أوقفه بتحكم شديد حسب توجيهاتها.

وكان أخي بول طفلاً صغيراً في الثالثة، أبيض البشرة، مستدير الوجنتين، ذا عينين زرقاوين واسعتين، وقد ورث خصلات الشعر الذهبية لجدنا لأمي الذي لم نعرفه. كما كان مطرقاً دائماً، لا ييكي أبداً، ويلعب نفسه وحيداً تحت الطاولة بفلة زجاجة أو بمشط من المعدن؛ لكن شراسته كانت مدهشة، فكنا نعاني بسببها معه من وقت لآخر مأساة فاقعة، وقد رأيناها ذات مرة يقفز فجأة مترنحاً، فائحاً ذراعيه، مزروود الوجه، مقبلاً على الموت اختناقاً. ونحطته أمي المدعورة على ظهره، وأدخلت أصبعها في حلقه، وأخذت تخرججه وهي ممسكة به من كعبيه، كما فعلت في غابر الأزمان أم أخيل.

وصار جوزيف رائماً، فقد أصبح يرتدي حلة جديدة زرقاء، تتناسب مع مدرسة الشارترين، واستبدل إطار عويناته الحديدي المعدني بإطار ذهبي جديد، بعد أن استندارت عدساتها، وأصبح يضع رباط عنق فنان، ذا قيطان يتدلى بطرفين، لكن هذا الاهتمام كان مسوغه أنه كان يعمل في شراكة مع زميله أرنو يومي الخميس والأحد صباحاً، في إعداد الخرائط الحائطية، التي كانت دار نشر «فيدال لا بلانش» تدفع فيها بحد أقصى مائة فرنك للخارطة - وأصبحت فيدال لا بلانش - جهةً ينظر إليها لدى العائلة باعتبارها مصدر دخل يعادل

خمسة وعشرين فرنكا شهرياً. وصار اسمها المزدوج مباركاً مرتين.
عندما قاربت سني السادسة. ألحقت بالمدرسة في فصل الأطفال الذي
كانت تديره الأنسة جويمار.

كانت الأنسة جويمار امرأة ضخمة ذات شارب لطيف خفيف أسمر،
وكانت عندما تتكلم يهتز أنفها، ومع ذلك كنت أجدها قبيحة، لأن بشرتها
كانت صفراء كبشرة الصينيات، ولأن عينيها كانتا واسعتين جاحظتين. وكانت
تتعامل بصبر في تعليم زملائي الصغار، لكنها لم تكن تشغل نفسها بي، لأنني
كنت أقرأ بسهولة، وهو ما كانت تعتقد أنه حدث بسبب حماقة متعمدة من
أبي. لكنها كانت تقول في حصة الغناء، أمام كل الفصل: إنني أغني بشكل
خاطيء، وإن من الأفضل أن أصمت، وهو ما كنت أفعله باستسلام.

وأثناء ما كانت جماعة الأطفال تنفخ حناجرها وهي تتابع عصا الأنسة
خلال الغناء. كنت أجلس صامتاً، مطأطأً، مبتسماً، مغمض العينين، أقص
لنفسي قصصاً، وأجول بخيالي متنزهاً على شاطئ بركة حديقة بورلي، التي
كانت تشبه حديقة سان - لو، على طرف متحف برادو مرسيليا.

ففي أيام الخميس والأحد، كانت خالتي روز، الشقيقة الكبرى لأمي، والتي
كانت جميلة هي الأخرى، تأتي للغداء معنا، وتصطحبني عقب الطعام، بالترام،
إلى هذه الأماكن السحرية. كنا نجد هناك الممرات التي تظللها الأشجار العتيقة،
والأدغال الموحشة، والمروج التي تدعوك للتقلب على أعشابها، والحراس الذين
يسهرون على حمايتك، والبرك التي يعوم بها البط الطافي.

وكان يومُ الحديقة أيضاً في تلك الحقبة، عدد من الناس الذين يتعلمون
ركوب الدراجات، والذين كانوا ينظرون متشجنين نظرات ثابتة، وهم يعضون
على نواجذهم، ويفلتون من أيدي موجهيم، فيعبرون الممر، متوغلين في الغابة،
ثم يعودون ثانية للظهور، حاملين دراجاتهم على أعناقهم، ذلك المشهد الذي لم

يكن يخلو أيضاً من النفع، فقد كان يضحكني حتى تدمع عيناى، لكن خالتي لم تكن لتتركني طويلاً في هذه المنطقة الخطرة. وكانت تجرني بعيداً - ورأسى ملتفت إلى وراء - نحو ركن هادئ على حافة البركة.

كنا نجلس على دكة، هي دائماً نفس الدكة، أمام أجمة من نبات الغار، بين شجرتين، وتخرج هي أصوافها من حقيبتها لتقوم بعمل التريكو، وأخلو أنا إلى الألعاب التي يقوم بها من هم في سنى.

كان اهتمامى الرئيسى هو أن أقذف بلقيمات الخبز للبط، وكانت هذه الحيوانات الغبية تعرفنى جيداً، فعندما كنت ألوح لها بقطعة الخبز، كانت تعوم بسرعة شديدة، مقبلة نحوى، لأبدأ في توزيع ما بيدي عليها.

وعندما كانت خالتي تشيح بنظرها عني، كنت أوجه أحاديث رقيقة بصوت عذب، للبطات، وأقذفها بالأحجار، بعزم أكيد لقتل إحداها، وكانت هذه الرغبة التي دائماً ما تحبب، تصنع عندي جاذبية شديدة للنزهات، فكنت لا أطيق الصبر في ترام برادو ذي الصرير.

ذات يوم من أيام الآحاد، حدثت لي مفاجأة غير سارة، عندما وجدنا شخصاً يجلس على الدكة التي تعودنا الجلوس عليها. كانت سحنته سحنة عجوز أشقر، وكان له شارب كثيف كستنائى اللون، ورموش صهباء حول عينين كبيرتين زرقاوين، جاحظتين بعض الشيء. وكان على أصداعه بعض الشعيرات البيضاء. ولأنه، علاوة على ذلك، كان يطالع في جريدة بغير صبور، فقد أدرجته للتو في عداد المستن.

وأردت خالتي أن تقنأني لموضع آخر نجلس فيه، لكنني رفضت، وعلا صوتي: إنها دكتنا، وعلى هذا السيد أن يرحل.

وبرصانة وأدب، وبغير أن يفوه بكلمة، تحرك السيد إلى الطرف البعيد

للدكة، ساحباً معه قبعته المنفوخة، التي كان موضوعاً عليها زوج من القفازات الجلدية، وهي العلامة القاطعة على الثراء، والتثقف.

وجلست خالتي على الطرف الآخر للدكة، مخرجة قماش تطريزها، وهرولت أنا، بكيس لقيماتي الصغير، ناحية حافة البركة.

التقطت قبل كل شيء حجراً جميلاً، كبيراً مفلطحاً، كقطعة نقدية من فئة الخمسة فرنكات، ويسبب سوء الطالع، رمقني أحد الحراس، مما جعلني أخفي الحجر في جيبتي، وأشرع في توزيع لقيمات الخبز على البطات، وأنا أداعبها بكلمات المزاح والمودة التي ظلت أرددها وأمامي جمع من البطات مصطف في نصف دائرة.

ونظر لي الحارس - الضجر - بغير اهتمام بهذا العرض، فقد أدار ببساطة ظهره لي، وسار عدة خطوات. وأخرجت الحجر من جيبتي في التو، وغمرني السرور - المشوب ببعض القلق - وأنا أصيب به في الرأس ذكر بط عجوز، فاستدار هذا المستعصي على الطبخ، بدلاً من أن ينقلب على ظهره وينزف من منخاره - كما اشتهيت - وسبح بعيداً عن حافة البركة، فارداً جناحيه على طولهما، وهو يبعث بصرخات عالية حائقة. وتوقف على بعد عشرة أمتار من الحافة، ثم انحرف من جديد ناحيتي، وشب ضارباً بجناحيه سطح الماء، وهو يقذفني بكل صيحات السباب التي يعرفها، وسط تشجيع الصرخات المؤلة لكل أفراد عائلته.

ولم يكن الحارس بعيداً، فأسرعت للاختباء في حجر خالتي. وكانت خالتي، التي لم تر شيئاً، لم تمس كذلك تطريزها، وقد استغرقت في الحديث مع الرجل الجالس على الدكة.

- أوه ! الولد الصغير الظريف ! قال: كم عمرك ؟

- ست سنوات.

- تبدو في الساعة قال وأنتي على هيأني اللطيفة، وأعلن أن لي عيني
جميلتين بالفعل للغاية.

وسارعت هي للقول بأنني لست ابنها، وإنما ابن أختها، وأضافت بأنها
ليست متزوجة. مما دفع العجوز الحبوب لأن يعطيني قرشين، كي أذهب وأشتري
لنفسى بعض المثلجات من البائع الذي كان يقف بعيداً في أول الممر.

تركاني بلا رقابة على غير المعتاد، فانتهزت الفرصة وذهبت ناحية راكبي
الدراجات. وصعدت -في حذر- على إحدى الدكك وشاهدت بعض
السقطات غير المبررة.

كانت أكثرها إضحاكاً تلك التي حدثت لعجوز في الأربعين من عمره
على الأقل، فقد خلع في يديه مقود الدراجة، وهو يقطب ملامحه على نحو
هازل، أثناء سقوطه دفعة واحدة على جانب الطريق، متشنجاً بكل قواه طيلة
الوقت على المقابض الكاوتشوكية، وأنهضوه، معفراً بالتراب، وقد تمزق سرواله
من عند الركبتين، وكان ناقماً هو الآخر كذكر البط العجوز. وتمنيت لو يدب
شجار بين البالغين، في اللحظة التي جاءت فيها خالتي والرجل الذي كان معها
على الدكة. جذباني بعيداً عن الجمع الصاخب، لأن ساعة العودة قد حانت.

ركب الرجل الترام معنا، فدفع عنا تذاكرنا، على الرغم من الاحتجاجات
الشديدة لخالتي، التي كانت، لدهشتي الشديدة، شديدة الاحمرار من الخجل.
ولقد فهمت، بعد ذلك بكثير، أنها اعتبرت مثل هذا الفعل تصرف عاهرات،
لأن رجلاً لم تكن تعرفه دفع عنا ثلاثة قروش في الترام.

وودعناه في نهاية الخط، وحيانا عدة مرات، ملوحاً بقبعته بطول ذراعه.
وعند وصولنا لباب منزلنا، أوصتني خالتي - بصوت خفيض - ألا أحدث أحداً
أبداً عن هذا اللقاء. ولقّنتني أن هذا السيد هو صاحب حديقة بورلي، الذي إذا

تفوهنا بكلمة واحدة عنه، سوف يعرف بكل تأكيد، وسيمتعا من العودة للحديقة ثانية. وعندما سألتها عن السبب في هذا، قالت: إنه سر. وحلا لي أن أكون على معرفة بوجود مثل هذا السر. فوعدت بعدم إفشائه، ووفيت بوعدتي.

وصارت نزواتنا في الحديقة متكررة أكثر من ذي قبل، وكان صاحب الحديقة الحبوب بانتظارنا دوماً على دكتنا. لكنه كان من الصعب تمييزه من على البعد، إذ كان يغير حبلته باستمرار. فيرتدي تارة سترة فاتحة وصديرية زرقاء، وتارة سترة حلّة من حبل الصيد على صديرية مطرزة، وفي إحدى المرات رأيته يرتدي سترة طويلة.

أما خالتي روز، فقد صارت ترتدي شالاً من الريش وقبعة من المخمل يعلوها عصفور أزرق بأجنحة مفرودة، كانت تبدو وكأنها تحتضن خصصات شعرها. وصارت تستعير مظلة أمي، أو قفازاتها، أو حقيبتها، وتضحك، ويحمر وجهها، وأصبحت أكثر فأكثر جميلة.

وعندما كنا نصل للحديقة، كان صاحبها يودعني أول الأمر لدى حارس الحمير التي كنت أركبها لعدة ساعات، ثم في العربة التي تجرها أربعة عنزات، ثم عند معلم الزلافة، وكنت أعتقد أن هذا السخاء لا يكلفه شيئاً، بما أن الحديقة كلها ملكه، لكن ذلك لم يقلل من امتناني الشديد له، وكنت فخوراً بأن لي صديقاً قريباً على هذا النحو، يكن لي محبة كبيرة إلى هذا الحد.

مرت على ذلك شهور ستة، وبينما كنت ألعب لعبة المسّاكة مع أخي بول، اختبأت منه أسفل البوفيه الذي أغلقت بابه عليّ بعد أن أزحت الأطباق. وأثناء ما كان بول يفتش عني في غرفتي، وكنت قد استعدت أنفاسي، سمعت أبي وأمي وخالتي روز يتحدثون في قاعة الطعام. قالت أمي :

- أياً ما كان الأمر، من الواضح أنه عجوز، فهو في السابعة والثلاثين!

- على مهلك قليلاً! قال أبي، أنا نفسي سأتم الثلاثين في نهاية العام،

وأعتقد أنني مازلت شاباً. إن السابعة والثلاثين هي أوج العمر! كما أن روز ليست في الثامنة عشرة.

— أنا في السادسة والعشرين. قالت خالتي روز، وهو يعجبني.

— وما هو عمله بالمحافظة؟

— نائب رئيس مكتب. ومرتبته مائتان وعشرون فرنكاً بالشهر.

— هي هيه! قال أبي.

— كما أن له عائداً بسيطاً يأتيه من عائلته علاوة على ذلك.

— هو هو! قال أبي.

— لقد قال لي: إننا يمكننا اعتبار دخله حوالي ثلاثمائة وخمسين فرنكاً بالشهر. وسمعت صغيراً طويلاً. أضاف بعده أبي :

— حسناً يا عزيزتي روز، أنا أهنئك! ولكنني أتساءل ما إذا كان وسيماً؟

— من ناحية الوسامة، قالت أمي، لا! ليس بوسيم.

عندها. دفعت بعنف باب البوفيه، وقفزت على الأرضية الخشبية، وأنا أصرخ: بل هو وسيم! إنه رائع! وجريت إلى المطبخ، الذي أغلقت ورائي بابه بالفتاح.

في أعقاب هذه الأحداث، جاء صاحب الحديقة إلى منزلنا بصحبة خالتي روز. كان يتسهم ابتسامة عريضة أسفل قبعته المنفوخة، التي كانت سوداء لامعة. وكانت خالتي روز كلها حمراء. فقد كانت ترتدي الأحمر من قمة رأسها لأخصم قدميها، وكانت عيناها الجميلتان تلمعان خلف بيشة زرقاء تتدلّى على طرف قبعة من القش.

كانا قد عادا من رحلة قصيرة، ووزّعا قبلاتهما على الجميع، أجل، فقد

قام صاحب الحديقة. أمام أعيننا المندهشة بتقبيل أمي، ثم أبي ! وفي أعقاب ذلك، أخذني من إيطي، ورفعني، ونظر لي برهة، ثم قال : «أنا منذ الآن أدعى العم جول، لأنني زوج خالتك روز».

ما كان أكثر مدعاة للدهشة، أنه لم يكن يدعى جول. فقد كان اسمه الحقيقي توماس. لكن خالتي العزيزة التي سمعت حكايات عن أن أهل الريف كانوا يطلقون اسم توماس على مبولتهم، قرّرت أن تطلق عليه اسم جول، وهو ما كان مألوفاً أكثر أن يجري إطلاقه على نفس الشيء. وكانت المخلوقة البريئة تجهل هذا، ولم يجرؤ أحد على إعلامها به، حتى توماس - جول، الذي كان يجبرها كثيراً بسبب معارضتها، خاصة عندما تكون على حق.

ولد العم جول وسط مزارع الكروم، بمقاطعة روسيون الذهبية، التي يعمل بها عدد هائل من الناس في دحرجة عدد هائل من البراميل. وقد ترك هو الكروم لإخوته، وأصبح مثقف العائلة، لكونه كان مستقيماً، إلا أنه ظل معتقداً بأصله القطالوني، وكان لسانه يجري على حروف الراء كما يجري جدول ماء على الحصى.

كنت أقلد كلامه، لكي أضحك أخي بول، وكنا نعتقد فعلاً أن اللكنة الريفية هي اللكنة الفرنسية الوحيدة السليمة، بما أنها كانت لكنة أيبينا، عضو لجنة امتحانات الشهادة العامة، وأن حروف الراء التي ينطق بها العم جول ليست إلا عبارة عن عاهة خفية.

وصار أبي وهو أصدقاء، لكن العم جول، لكونه أكبر سناً وأكثر ثراء، كان له أحياناً مظهر الشخص الكفيل. كان يحتاج من وقت لآخر ضد المدّة الطويلة للإجازات المدرسية.

- أنا أسلم - كان يقول - بأن الأطفال بحاجة لراحة طويلة بهذا القدر. ولكن خلال هذا الوقت، يمكن تشغيل المعلمين في شيء آخر !

- نعم، نعم ! يقول أبي ساخراً، يمكن أن يأخذوهم ليحلوا، لمدة شهرين، محل موظفي المحافظات الذين أهلكهم العمل الإداري، وأنهكهم النوم الطويل ! لكن مناقشاتهم الصداقية لم تكن تتجاوز هذا الحد. فلم تقترب هذه المناوشات أبداً من الموضوع الكبير، اللهم إلا بالتلميحات الخفية، فقد كان العم جول يذهب لحضور القداس بالكنيسة.

وعندما علم أبي - لأن خالتي روز أسرت بهذا لأمي - أنه يذهب للكنيسة مرتين بالشهر، أصابه الغم الشديد، وأعلن أن هذا « يطفح بالكيل ». وعندما توسلت إليه أُمي لكي يسلم بهذا النوع من الأشياء، وأن يقطع، في حضور العم جول، عن تهكماته الدائمة على رجال الدين، وأن يكف بصفة خاصة عن أن يغني الأهزوجة الساخرة التي تتهكم على المآثر الإسرائيلية المراجعية للأب الوقور دويانلوب :

- أنتصوبين أنه سيفضب حقاً ؟

- أنا متأكدة أن ذلك سيمنعه من المجيء عندنا، وسيمنع أختي من زيارتي.

وهز أبي رأسه في حزن، ثم صاح، فجأة، بصوت هائج :

- ها هو ! ها هو عدم التسامح لدى هؤلاء المتعصبين ! هل أمنعه أنا من الذهاب وأكل إلهه كل أحد ؟ هل أمنعك من زيارة أختك المتزوجة من رجل يعتقد بأن خالق الكون ينزل بنفسه كل يوم أحد، في مائة ألف قدح ...؟ حسناً سأريه مدى اتساع أفقي. ولن أسخر علي سجيتي. بل ولن أحدثه عن محاكم التفتيش، ولا عن كالاس، ولا عن جان هوس، ولا الآخرين الذين أحرقتهم الكنيسة، ولن أقول شيئاً عن البابوات بورجيا، ولا عن العشيقة جين ! وحتى لو حاول هو أن يعظني بالأفكار الصببانية لعقيدة أكثر صببانية من حكايات جدتي العجوز، فسأرد عليه بأدب، مكتفياً بالضحك بهدوء في أكمامي.

لكنه لم يكن له أكمام يضحك فيها. بل لم يضحك بالمرّة.

رغم ذلك، وفى بوعده، ولم تضطرب صداقتهما بسبب بعض الكلمات التي كانت تصدر رغماً عنهما من حين لآخر، وهي الكلمات التي كانت زوجتهما يقظتين لمواراتها في التوبصيحاح الدهشة العالية، أو بنوبات الضحك ذات الصرير، اللاتي كن ينفجرن فيها عقب كل سبب من هذا النوع.

وسرعان ما صار العم جول صديقاً كبيراً لي. وكان كثيراً ما يثني على وفائي بالمعهد الذي قطعته على نفسي، وعلى احتفاظي بالسفر في زمن مواعيد حديقة بورلي؛ فكان يقول لمن يستمعون إليه إن «هذا الطفل سيكون دبلوماسياً كبيراً» أو «ضابطاً برتبة عالية» (هذه النبوءة، برغم أنها كانت تضع أمام القدر أكثر من خيار واحد، لم تتحقق بعد). وكان يهتم كثيراً بالاطلاع على شهاداتي المدرسية، ويكافئني (أو يواسيني) بالألعاب أو بأكياس الحلوى.

رغم هذا، وبمناسبة نصحي له يوماً بأن يني بيتاً صغيراً في حديقة بورلي الجذابة التي يمتلكها، على أن تكون لهذا البيت شرفة يمكن الإطلال منها لمشاهدة سائقي الدراجات، اعترف لي بأسلوب مازح، بأنه لم يكن أبداً مالكاً لهذه الحديقة.

وأصابني الغم بسبب الفقدان السريع لهذه الممتلكات الجميلة، وندمت على أنني كنت معجباً لزمن طويل كهذا بدجّال من هذه الشاكلة. أضف لهذا، أنه تكشف لي في ذلك اليوم، أن الأشخاص البالغين يعرفون الكذب أكثر مني، ويدأ لي أنني لن أشعر بعد ذلك بالاطمئنان بينهم.

ولكن هذا الكشف، من ناحية أخرى، صار مبرراً لأكاذيبي الخاصة سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فقد جلب الهدوء إلى نفسي، وكنت عندما أضطر للكذب على أبي، ويعترض ضميري بوهن، أقول لنفسى: «مثلي مثل العم جول»، فكنت أكذب ببراعة، بعيني الساذجتين، وطلعتي البريئة.

ف ذات يوم ، انتقلنا إلى منزل آخر ، لأن أبي ارتأى أن شقتنا أصبحت ضيقة علينا ، فحصل على بدل سكن وذهبنا لنقطن في شارع تيروس ، بدور أرضي كبير ، يتبعه دور أسفله ، مفتوح من باب الخلفي على حديقة صغيرة .

ومثل هذا إحدى التقلبات الكبرى في حياتنا ، وأثارت أمي ، التي كانت مضرجة من الزهو ، انهيار خالتي روز ، وهي تشرح لها كيف سترتب من الآن فصاعداً الخزانات والمشاجب الثمانية ؛ أما أنا ، فرحت أقص «قصصاً» في المدرسة عن هذا «القصر» ، ولكي أوضح مدى سعته ، أكدت ، بغير أن أكذب ، أن بمقدورنا فيه أن نلعب الإستغماية ! وقد أثار ترف كهذا ضدي عدداً لا بأس به من الحاسدين ، ولكن ظل هناك ، لحسن الحظ ، عدد من الذين لم يصدقوني ، والذين ظلوا أصدقاء أوفياء لي .

ومضى عامان ، تمكنت فيهما من تعلم حساب النسبة والتناسب ، وعرفت - في سعادة غامرة - بوجود بحيرة تيتاكا ، ولويس العاشر «المشاكس» ، والقواعد المكدر؛ التي تخكم أسماء المفعول .

وكان أخي بول ، هو الآخر ، قد انتهى من كتاب مبادئ القراءة ، وصار يأوي في المساء بسريره ، مع فلسفة مجلة الأقدام المعدنية المصورة .

وحدث أن ولدت لنا أخت صغيرة ، أثناء ما كنا نحن الاثنين مدعويين لدى خالتي روز لمدة يومين ، بحجة عمل فطائر عيد القيامة . وكانت تلك الدعوة المنحوسة هي التي منعني من المراجعة الحاسمة لفرضية مانجيابان الجريئة ، التي كانت زميلة لي بالفصل ، وكانت تدعي أن الأطفال يخرجون من سرر أمهاتهم .

هذه الفكرة بدت لي في مستهل الأمر سخيفة ؛ ولكنني ذات مساء ، وبعد اختبار طويل لسرّي أنا ، استنتجت أن لها بالفعل شكل العروة ، التي يمتصصها زرٌ صغير ، مما جعلني أستخلص أن عملية فك هذا الزر ممكنة ، وأن مانجيابان كانت تقول الحقيقة .

مع ذلك، وبإمعاني التفكير في أن الرجال لا يضعون الأطفال، فلا تعدو علاقتهم بالأبناء والبنات أن هؤلاء يدعونهم: بابا، على حين أن الأطفال يأتون فعليا من الأم، شأنهم في هذا شأن الكلاب والقطط. لم يثبت تفحصي لسرتي شيئا لي، بل على العكس، كان لتحقق وجود هذه السرة لدى الذكور ما أضعف بشدة من نفوذ ما يجيبان على عقلي. وأصبحت في شك.

على أية حال، وبما أن أختا صغيرة لي قد ولدت، كانت هذه هي اللحظة التي عليّ فيها أن أفتح عيني وأذني، وأن أكتشف السر الكبير.

كان ذلك أثناء عودتنا من عند خالتي روز، وأثناء عبورنا للسفلى، تكشف لي وأنا أسترجم الماضي أمر هام، وهو أن منظر أُمِّي كان قد تغير تغيراً هاماً منذ ثلاثة شهور، فصارت تسير بأكتاف مائلة للخلف كساعي عيد الميلاد. وتذكرت أن بول في هذا الخصوص سألتني ذات مساء بقلق: ترى ما الذي تخفيه أمتا تحت مئزرتها ؟

ولم أكن أعرف بماذا أجيبه...

ووجدنا أمتا العزيزة عند عودتنا باسممة، لكنها كانت صاحبة خاترة القوي، راقدة في السرير الكبير، ويجوارها، في مهد، مخلوقة صغيرة مقطبة كانت تزئ كالمزمار. وقفرت إلى ذهني فرضية ما يجيبان، فقبلت أُمِّي بحنو وأنا أفكر في عذاباتها لحظة فك عروة سرتها.

وبدت لنا المخلوقة الصغيرة في مستهل الأمر شيئاً غريباً. وما ضاعف من ذلك أن أُمِّي كانت تعطيها لديها، الأمر الذي صدمني وأثار مخاوف بول. فقد قال لي: «إنها تفترسها لنا أربع مرات في اليوم». لكن هذه الصغيرة كانت عندما تتقلب أو تتلجج، تذكرنا بقوتنا وحكمتنا. وقد تبينناها بشكل مطلق.

< > < >

كان العم جول والخالة روز يأتيان عندنا يوم الأحد وأذهب -مع بول- للغداء عندهما كل خميس تقريباً. وكانا يقطنان شقة جميلة، يشارع مينيم ؛ تضاء بالغاز، وكانت الخالة تطبخ في فرن غاز، ولديها خادمة.

ولاحظت يوماً بدهشة، أن خالتي العزيزة قد انتفخت بدورها، واستنتجت لتوِّي عملية فك عروة قريية. وتأكد تشخيصي بعد ذلك من المحادثة التي أدهشني بعض ما التقطته أذناي منها، والتي دارت بين أمي والآنسة جويمار.

فأثناء دخول الجزار إلى الركن الداخلي من دكانه ليقطع لنا شريحة بأربعة قروش، قالت الآنسة جويمار بقلق :

- أطفال المسنين، يولدون دائماً بصحة سيئة...

- إن روز لم تتجاوز الثامنة والعشرين ! احتجّت أمي.

- بالنسبة للطفل الأول. هذه سن كبيرة، ولا تنسي أن زوجها في الأربعين !

- تسعة وثلاثون، قالت أمي.

- ثمانية وعشرون وتسعة وثلاثون يساويان سبعة وستين ! قالت الآنسة جويمار.

وهزت رأسها، بانشغال وأسى...

وذات مساء، أعلن أبي أن أمي لن ترجع إلى البيت، لأنها مستظل لدى أختها التي ليست على ما يرام. وتعشينا نحن الأربعة في صمت شديد، ثم ساعدت أبي في تنويم الصغيرة. وكانت تلك عملية شاقة، بسبب وعاء الغسيل، والأقمطة، وخوفنا من أن تتملّح الصغيرة في أيدينا.

قلت لبول وأنا أخلع جواربي : «إنهم يفكون الآن عروة الخالة روز». وكان هو يقرأ في سريره أقدامه المعدنية العزيزة عليه، فلم يجيني، لكنني كنت مصراً

على إطلاعهم على الألفاظ الكبرى، فآلحت : «هل تعرف لماذا ؟»
ولم يبد أية حركة، ولاحظت أنه كان نائماً. عندها سحبت كتابه برفق من
بين يديه، وفردت له ركبتيه، وأطفأت المصباح بنفخة واحدة.
في اليوم التالي، الذي كان يوم الخميس، قال أبي لنا :
- هيا أسرعوا ! انهضوا، فسنذهب إلى الخالة روز وستجدون بانتظاركم
هناك مفاجأة جميلة !

- أنا، قلت، أعرف مفاجأتك...
- هو هو ! قال، ما الذي تعرفه ؟
- لن أقول لك ما أعرف. ولكنني أؤكد لك أنني فهمت كل شيء.
ونظر لي أبي وهو يتسهم، ولم يلح في السؤال.
ورحلنا نحن الأربعة عبر الشوارع الطويلة. وكانت الأخت الصغيرة غير
مهتمة على نحو مضحك، في ثوب زرقاها من الأمام. ولم تكن قد تمكنا
من تصفيف شعرها، بسبب جعيرها وصراخها.
وكان القلق الشديد يعصف بي، فقد كنا بصدد طفل أجنبي مسنون، كما
قالت الأنسة جويمار، التي لم تحدد شيئاً، سوى أنه سيكون له من العمر ثمانية
وتمتون عاماً. وتخيلت أنه سيكون كائناً لا ينمو، وأن له بالقطع شعراً أبيض، مع
لحية بيضاء، كلحية جدي، لكنها لحية أصغر، وأنعم، فهي لحية طفل وليد. لذا
فهو لن يكون جميلاً بالطبع، لكنه ربما سيكون قادراً على الكلام من فوره،
ويخبرنا من أين أتى، وهو ما سيكون أمراً هاماً.
ولقد أحبطت تماماً في كل هذا.

فعندما ذهبنا نقبل الخالة في حجرتها. وكان لها مظهر من تم فك عروته

بحق، وإن لم تكن على درجة كبيرة من الشحوب. كانت أمي جالسة على حافة السرير، وفيما بينهما طفل مولود، بلا لحية ولا شارب، ذو سحنة ممتلئة شبيهة بسحنة اللعبة، نائم بهدوء، تحت خصلة من الشعر الأشقر.

- ها هو ابن خالتك ! قالت أمي بصوت خفيض.

وكانت كلتاهاما تنظران إليه، متأثرتين، متبهرتين، سعيدتين، بإعجاب زائد عن الحد، وكان العم جول - الذي دخل الغرفة في هذه الأثناء - شديد الإحمرار من الفخر. وأعاد بول، المغموم إليّ مرحي، عندما دفعني إلى غرفة الطعام، التي عثر فيها بالصدفة بإناء الفاكهة الكريستال، على موزات أربع، أكلناها بتلذذ.

< > < >

ذات مساء جميل من أماسي شهر أبريل، كنت عائداً من المدرسة مع بول وأبي. وكان ذلك اليوم يوم أربعاء، اليوم الذي أعده أجمل أيام الأسبوع، ذلك أن الخميس إجازة، ولأن أيامنا ليست جميلة إلا باعتبار غدها.

وبينما كنا نسير على رصيف شارع تيفولي، قال لي أبي :

- يا غلام، سأكون بحاجة إليك غداً صباحاً.

- بحاجة لي. لماذا ؟

- ستري. إنها مفاجأة !

- هل ستحتاجني أنا أيضا ؟ سأل بول بقلق.

- بالطبع، قال أبي. لكن مارسيل سيأتي معي، وستظل أنت بالبيت، لكي تراقب الشغالة، التي ستنظف الكهف. وهو أمر شديد الأهمية.

- أنا أخاف في العادة، قال بول، من الذهاب للكهف، لكنني لن أخاف من شيء طالما سأكون مع الشغالة.

في اليوم التالي، حوالي الساعة الثامنة، جاء أبي ليوقظني، مقلداً صوت النفير، ثم نزع الغطاء من فوقي ساجداً إياها من طرف سريري.

- لا بد أن تكون جاهزاً للخروج خلال نصف ساعة. سأذهب أنا لحلاقة ذقني. ودعكت عيني بقبضتي، وتمطعت، ونهضت.

وكان بول قد اختفى تحت أغطيته، فلم يظهر منه سوى خصلة شعره الذهبية.

كان الخميس يوماً للنظافة الشاملة. وكانت أمي تأخذ أمور النظافة هذه مأخذ الجد الشديد. وبدأت يومي بأن ارتديت ثيابي كلها، ثم تظاهرت بالإغتسال في الماء الجاري، بمعنى أنني قبل وجود جهاز ضجيج البث الإذاعي المسمى بالراديو بعشرين عاماً، ألقت سيفونية من أصوات الضجة التي توحى بضجة الحمام.

فتحتُ أولاً حنفية الحوض، ثم وضعتها بحذق في وضع يجعلها تصدر شخيراً من المواشير، في هذه الطريقة يكون أبواي قد أخذنا علماً ببدء عملية الاغتسال.

وبينما كان نزول الماء الساخن يحدث في الحوض ضجيج، كنت أرقبه من مسافة كافية. وبعد أربع أو خمس دقائق، أدت محبس الصنبور دفعة واحدة، بما جعله يصدر صوتاً، يعلن عن انغلاقه تحت الضغط المفاجئ، بما جعل الصمام يرتجف.

وانتظرت لحظة، صففت فيها شعري. ثم وضعت الطُّست الصباح على البلاط محدثاً صوتاً وأعدت فتح الصنبور - ببطء وبحركة خفيفة للغاية، فأخذ يصفر ويموء ويعيد شخيرهِ المترجرج، فتركت الماء يسيل لمدة دقيقة، مسافة قراءة صفحة من الأقدام المعدنية. وفي اللحظة التي هرب فيها كروكنيول بعد أن شكل بقدمه رجل البوليس، وكتب أسفلها «يتبع»، أغلقت الصنبور بعنف.

كان نجاحي كاملاً، فقد حدثت فرقة مزدوجة، تسببت في تموج الماسورة. وبعد خبطة ثانية بطست الصباح كنت قد انتهيت، في الموعد المطلوب، من اغتسال مقبول، بغير أن تمسني نقطة ماء واحدة.

< > < >

ووجدت أبي جالسا أمام طاولة غرفة الطعام، يعد النقود؛ وكانت أمي أمامه تشرب قهوتها. كانت ضفائرها السوداء، ذات الانعكاسات الزرقاء، تتدلى إلى الأرض خلف مقعدها. وكانت القهوة بالحليب المعدة لي مصبوبة. فسألته: غسلت رجلك ؟

ولأنني أعرف أنها تعلق أهمية خاصة على هذه العملية السخيفة، والتي بدت ضرورتها لي أمراً غامضاً (فلا أحد يرى الرجلين). أجبت باطمئنان :

- كليهما.

- وهل قصصت أظافرك ؟

وبدا لي أن الاعتراف بنسيان الأظافر قد يجر إلى إظهار حقيقة باقي الأشياء.

- لا، قلت، لم أضطر لهذا. فقد شذبتهما يوم الأحد.

- حسناً، قالت. وبدأ عليها الرضا. وارتحت أنا.

وقال لي أبي، بينما كنت أقضم شطيرتي :

- ألا تعرف أين منذهب ؟... حسناً، سأفهمك، إن أملك بحاجة لبعض الشيء لهواء الريف. لذا فقد استأجرت فيللاً، مناصفة، مع العم جول، في التلال. سنقضي بها الإجازة الكبيرة.

وأصابني الانبهار.

- وأين هي. هذه الفيللا ؟

- بعيداً عن المدينة، وسط غابات الصنوبر.

- أهي بعيدة للغاية ؟

- نعم. قالت أُمي، لايد للوصول إليها من ركوب الترام لآخر الخط، والمشي بعد ذلك على الأقدام عدة ساعات.

- أهي في البرية ؟

- تكاد، قال أبي، إنها بالضبط على حافة الصحراء البرية، الممتدة من أوبان حتى إكس. وهي صحراء حقيقية. وجاء بول، حافياً، يستطلع الأمر ثم سأل :

- هل بهذه الصحراء جمال ؟

- لا، قال أبي، ليس بها جمال.

- أبها خرائيت ؟

- لا لم أر فيها خرائيت.

وظللت أنا أمطر أبي بالأسئلة حتى قاطعتني أُمي : كُل !

كنت قد نسيت شطيرتي يدي، فدفعت بيدها يدي نحو فمي. ثم استدارت ناحية بول :

أما أنت، فاذهب أولاً وضع خُفِّيك، وإلا ستصاب ثانية بالتهاب الزور. هيا، اذهب. وذهب.

فسألت أبي : ستصحبني إذن إلى هناك اليوم ؟

- لا، قال، ليس بعد، فالغيللا بلا أي أناث، ولا بد من تأنيثها أولاً. ولأن الأثاث الجديد يكلف كثيراً. فسنذهب هذا الصباح لتاجر العاديات عند تقاطع الطرق.

{} {} {}

كان يهوى شراء الأشياء العتيقة من عند تجار العاديات.

كل شهر، عند عودته بعد قبض مرتبه من العمدية، كان يأتي معه ببعض الأشياء العجيبة، كمامة متفجرة (نصف فرنك)، فرجار مكسور (فرنك ونصف)، قوس كمان كبير كوترياص (فرنك)، مبضع جراح (فرنكين)، منظار بحري مكبر صار لا يظهر الأشياء إلا بالمقلوب (٣ فرنك)، سكينه سلخ (٢ فرنك)، بوق صيد، مع مبسم نغير (٣ فرنك)، بخلاف الأشياء الغامضة، التي لا يستطيع إنسان أن يجد لها استعمالاً على الإطلاق، والتي تتناثر في كل مكان بالمنزل تقريباً.

وكانت هذه المناسبة الشهرية، بالنسبة لي ولبول، عيداً حقيقياً. لكن أمي لم تكن تشاركنا بهجتنا. كانت تنظر، متحيرة، إلى قوس جزر فيجي، أو إلى جهاز

قياس الارتفاعات الذي كان عقربه قد ارتفع إلى علامة أربعة آلاف متر (ربما في أعقاب صعود لقمة مونبلان، أو سقوط من على سلم) ولم يعد يتحرك ثانية.

طيب، تقول بحزم : «أهم شيء ألا يلمس الأطفال هذه الأشياء!» وتهرع إلى المطبخ، وتعود بالكحول، وماء الكلور. وبلورات الصودا، وتدعك جيداً هذا الحطام.

لا بد من القول إنه في تلك الحقبة، كانت معرفة الميكروبات أمراً حديثاً، فقد كان باستير العظيم قد انتهى بالكاد من اكتشافها، وكانت هي تتخيلها علي هيئة نمور صغيرة، مستعدة لاقتناسا من داخلنا.

وأثناء ما كانت ترج بوق الصيد، الذي ملأته بماء الكلور، قالت، في حالة من الفجعية : إنني أتساءل، أيها المسكين جوزيف، ما الذي تنوي فعله بهذه القدرة ؟

وبلهجة المنتصر، لم يزد المسكين جوزيف عن قوله : بثلاثة فرنكات ! وفهمت فيما بعد، أن الأمر الذي كان يغريه بالشراء، ليس الشيء في ذاته ولكن ثمنه.

- حسناً، هذه فرنكات ثلاثة أهدرها التبذير !

- لكن يا عزيزتي، لو أنك أردت أن تصنعي بوق الصيد هذا، فكري في ثمن النحاس، فكري في الآلات والأدوات الخاصة التي ستحتاجينها لتصنيعه، وفكري في مئات الساعات من العمل الضروري لتحويل النحاس لبوق صيد...

وترفع أُمي كتفها، ويبدو عليها أنها لم تفكر أبداً من قبل في صناعة بوق صيد، أو صناعة أي شيء آخر. عندها، يقول أبي، في تواضع :

- أنت لا تحسبين حساب أن هذه الآلة، التي ربما كانت لا نفع لها في ذاتها، هي منجم حقيقي في الوقت ذاته ! فكري للحظة، فلو أنني نشرت طرقها

هذا، لحصلت على جهاز للسمع، أو مكبر للصوت، أو قمع، أو مكبر صوت للفونوغراف، أما بقية الأنبوب، فإذا ما ثبته بشكل حلزوني، سيكون ماسورة أنبيق. وبإمكانني أيضاً أن أقومه لأصنع منه أنبوب نفخ للزجاج، أو ماسورة مياه نحاسية، ولاحظني جيداً ! أنني إذا نشرته شرائح رفيعة سيكون لديك عشرون دسنة من حلقات الستائر ؛ وإذا ثقبته مائة ثقب صغير سيكون لدينا رشاش ماء، إذا ماضبطته وركبته على حنفية الحوض، سيكون مسدس ماء يفتح ويقفل.

هكذا، وأمام أبنائي المنبهرين، وزوجته العزيزة التي أصابها الفجعية، يقوم بتحويل الآلة التي لا فائدة لها إلى ألف من الأشياء الأخرى التي لا فائدة لها كذلك، لكنها عديدة.

لذا، ففي ذلك الصباح، عندما ذكر أبي أمامها كلمة «تاجر العاديات»، هزت رأسها عدة مرات، وبدا عليها القلق. لكنها لم توضح ما برأسها وقالت لي فحسب : «أمك مندبل ؟»

وكان معي مندبل بالتأكيد، ظل نظيفاً في جيبي مدة ثمانية أيام. فبالنسبة لي، أنا الذي أعرف كيف أخرج من أنفي، بأنظفر (أصبعي السبابة)، المواد التي تصفر فيها وتضايق تنفسي، كان استخدام المندبل يبدو لي نوعاً من الخضوع للتطير الأبوي.

وقد حدث لي مرات أن استخدمت المندبل لتلميع حذائي، أو لتنظيف درج مكتبي بالفصل، لكن فكرة أن أنفخ مخاطي في هذا النسيج الرقيق، ثم أطبقه بما فيه وأضعه ثانية في جيبي، كانت تبدو لي سخيفة ومقرفة. ومع ذلك، وكالأطفال الذين كبروا على تلقي التعليم من آبائهم، لكنهم مضطرون لاحترام تهورساتهم التي لا أمل في شفائها، لعدم تكديرهم، سحبت مندبلي من جيبي وأنا أخفي في نفس الوقت كفي المبقعة ببقعة كبيرة من الجير، ولوحت به كما يلوح الناس في محطات السفر، أمام أمي التي اطمأنت، وتبعت أبي إلى الشارع.

في الشارع، وإلى جوار الرصيف، رأيت عربة اليد الصغيرة التي استعارها أبي من الجار، مكتوب على جانبها بحروف غليظة سوداء :

بيرجونيا

فحم وأخشاب

ودخل أبي بين ذراعي العربة، فجرت للوراء.

- أنا بحاجة إليك، قال لي، لكي تمسك بالفرملة عند نزولنا بشارع تيفولي. ونظرت بعيداً إلى شارع تيفولي الذي كان صاعداً أمامي نحو السماء بانحدار شديد.

- لكن يا أبي، قلت، إن شارع تيفولي، صاعد !

- نعم، قال لي، الآن، هو صاعد. لكنني على يقين تقريباً أنه أثناء العودة، سيهبط كما أننا سنكون محمولين في العودة. أما الآن فاجلس أنت على العربة. واتخذت مكاني في منتصف سطح العربة لكي تحفظ توازنها.

كانت أمي تنظر إلينا، من خلف شبكة النافذة الحديدية المقوسة، ونحن نرحل : أهم شيء، قالت، احترسوا من الترام.

مما جعل أبي لكي يعبر عن ثقته، يصهل بفرح، ويرفس برجليه رفستين صغيرتين، ثم يعدو نحو المغامرة.

وتوقفنا بنهاية شارع المادلين، أمام دكان صغير مغبر، كانت تفتش بضائعها ابتداء من الرصيف، الذي كان مزدحماً بالأثاثات الغريبة، المرصوبة حول مضخة إطفاء حرائق قديمة كان معلقاً عليها هي الأخرى كمان قديم.

كان صاحب هذه التجارة رجل طويل، نحيف، شديد القذارة. له لحية رمادية، وخصلات شعر كخصلات الشعراء الغنائيين، تتدلى أسفل قبعة فنان كبيرة كان يضعها على رأسه. وكانت له هيئة المكتئب، وهو يدخن غليونه

الفخاري.

كان أبي قد جاء إليه قبل ذلك، وتخير بعض الأثاث، الذي كان عبارة عن دولاب صغير، ومنضلتين، وبعض حزم من قطع الأخشاب المقصوفة، التي كما قال تاجر العاديات، يمكن بها صناعة ست كراس، كما كان قد تخير أيضا كنبه صغيرة تمزقت أحشاؤها كحصان مصارع الثيران، وثلاث مساند متفجرة، لم يعد بها سوى نصف حشوها، وخزانة فقدت أرففها، وقلة فخارية شبيهة بالديك على نحو واضح، وأوانٍ منزلية عديدة بدا عليها الصدأ.

وساعدنا تاجر العاديات في تحميل كل هذه البضاعة على عربة اليد، التي كانت تبرك على عكاكيزها، كما تفعل الحمير في الربيع. وتم تستيف كل هذا وربطه بالجمال، التي تنسّلت من كثرة الاستعمال. وجاءت ساعة الحساب. نظر تاجر العاديات إلى أبي، بنوع من التأمل وقال :

- الحساب خمسون فرنكا.

- هو هو ! قال أبي، هذا كثير جداً !

- كثير، لكن الأثاث جميل، قال تاجر العاديات، كما أن الدولار له تاريخ. وأشار بأصبعه إلى هذه الأنقاض المسوسة.

- على عيني وعلى راسي، له تاريخ بالطبع، لأنه قديم !

- واتخذ تاجر العاديات منظر المتأنف وقال :

- هل أنت ممن يحبون الأثاث الحديث ؟

- في اعتقادي، قال أبي، إنني لا أشتري هذا لمتحف، بل من أجل استعماله.

وبدا العجوز تسمأ لهذا الاعتراف.

- حسناء، قال، ألا تهتم ما إذا كانت قطعة الأثاث هذه قد شهدت يوماً
الملكة ماري أنطوانيت في قميص نومها ؟

- بالنظر لحالتها، قال أبي، لن يدهشني أن تكون شهدت الملك هيرود في
سراويله الداخلية !

- أنا أمنعك من الاستطرد في الحديث بهذا الشكل. قال تاجر العاديات،
وسأضيف لمعلوماتك شيئاً، فالملك هيرود ربما كانت لديه سراويل داخلية، لكنه
لم يكن لديه دولاب ! اللهم فقط بعض صناديق بأقفال ذهبية، أو أنواع من
الحلل الخشبية. أقول لك هذا لأنني أمين.

- أشكرك، قال أبي، ولأنك أمين، سأدفع لك في هذه الأشياء خمسة
وثلاثين فرنكاً.

وراح بائع العاديات ينظر لنا الواحد بعد الآخر، هازاً رأسه بابتسامة متألّمة، ثم
أعلن.

- هذا غير ممكن، لأنني مدين بخمسين فرنك لصاحب الدكان الذي
سيجيء لتحصيلها ظهراً.

- إذن، قال أبي في تبجح، لو أنك كنت مديناً له بمائة فرنك، لكنت
طلبت مني المائة.

- طبعاً ! وإلا فمن أين تتصور أنني أحصل عليها إن لم يكن من الزبون ؟
لاحظ أيضاً أنني لو كنت مديناً له بأربعين فرنك، لطالبتك بأربعين، ولو كنت
مديناً بثلاثين لبعث لك بثلاثين.

- في هذه الحالة، قال أبي، يكون من الأفضل لي أن أعود غداً، بعد أن
تدفع له ولا تكون مديناً بشيء...

- لم يعد الأمر ممكناً الآن ! صاح تاجر العاديات. فالساعة تمام الحادية عشرة والنصف. وأنت وضعت نفسك في هذا الموقف. وليس لك حق التملّص. فضلاً عن ذلك، أعترف لك بأنك لم تكن محظوظاً بمجيئك اليوم. ولكن لكل إنسان حظه في هذه الحياة ! أنت مثلاً شاب نضير، مستقيم القامة كالألف، ولك عينان رائعتان، وبما أن في هذا العالم بشراً مصابين بالقتب والعمور، فلا حق لك في التشكي، خمسون فرنكاً !

- حسناً، قال أبي. في هذه الحالة، سنعيد إنزال هذه الحطام من العربة، ونشتري من مكان آخر، يا ولد، فلك الحال !

وأمسك بي تاجر العاديات من ذراعي وهو يصبح : إنتظر ! ونظر لأبي في تعاسة وانكسار، وهز رأسه، وقال لي : « كم هو عفيف ! ثم تقدم ناحيته، وتحدث بمهابة :

- بخصوص السعر، لن نعيد الحديث فيه، خمسون فرنكاً ؛ ومستحيل بالنسبة لي أن أخفضه. ولكن ربما كان بمقدورنا أن نزيد البضاعة.

ودخل إلى المحل، وغمز أبي لي بعينه في انتصار، وتبعناه. كانت بداخل المحل مِثَاريس من الدواليب، ومرايا برصاء، وخوذات، وساعات حائط، وحيوانات مصبرة. فأنفذ الرجل ذراعه في هذه الحفائر وأخرج منها بعض الأشياء.

- أولاً، قال. بما أنك تحب الأثاث الحديث، أعطيك فوق البيعة خزانة السرير الصغيرة هذه وهي من الصاج المدهون، وهذا الصنبور المطلي طراز منقار البجعة. ولن تقول لي إنها أشياء غير حديثة ! ثانياً، أعطيك هذه البندقية العربية الدمشقية، التي ليست بندقية رصاص وإنما بندقية خردق. انظر لطول ماسورتها العجيب ! الذي يجعلها كأنها صنارة صيد. وانظر، أضاف بصوت خفيض، الرموز المكتوبة عليها (بالأحرف العربية) والمحفورة في خشبها !

وأرانا علامات كانت تبدو كأنها حفنة من الفواصل، وهمس :

- عين. وقاف. هل خمنت ؟

- هل تريد إقناعي، قال أبي، أن هذه البندقية كانت للأمير عبد القادر؟

- أنا لا أفتحك بشيء، قال تاجر العاديات في ثقة. وتصرف بطريقة تضفي مزيداً من التأكيد، واللبيب بالإشارة يفهم. وأضاف، أعطيك فوق ذلك عاكس الإشارات الضوئية هذا، وهو من النحاس المقطّع، ومظلة الراعي هذه (التي ستكون كالجديدة إذا ما غيرت لها قماشها فحسب)، وهذه الطبلية الكبيرة من ساحل العاج -التي تعد من المقتنيات- ومكواة الحائك هذه. فهل أنت مهسوط ؟

- تماماً هكذا، قال أبي، ولكنني أريد أيضاً قفص الفراخ القديم هذا.

- هي هبة ! قال تاجر العاديات، هو صحيح قديم، لكنه يمكن استعماله كأنه جديد. على العموم، ومن أجل خاطرك، سأعطيك إياه. ومد أبي إليه ورقة بنفسجية بخمسين فرنكاً، فأخذها باهتمام، مع تحية من رأسه.

وفي النهاية، وبعد أن انتهينا من تستيف غنيمتنا بالجبال، وكان هو يعيد إشعال غليونيه، قال فجأة :

- إن لديّ رغبة في أن أعطيك سريراً هدية للمصغير !

ودخل دكانه، واختفى في قلعة الدواليب ثم عاود الظهور، منتصباً حاملاً على طول ذراعيه إطاراً صنع من أربعة ألواح خشبية قديمة مشبوكة في بعضها بالكاد، بما جعلها تتخذ شكل المعين لا شكل المستطيل. وكانت معلقة على طرف واحد من هذه الألواح، بدبابيس السجاد، قطعة مستطيلة من الخيش، ذات أطراف منسلة، تتدلى كراية ترمز للبؤس.

- في الحقيقة، قال، ينقصه إطار آخر شبيه بهذا يوضع خلف خلاف معه. وسترون طرقة. بأربعة أطراف خشبية، وينام الصغير كالباشا !

وعقد ذراعيه على صدره، وأمال رأسه برقةٍ إلى جانب، وبدأ كما لو أنه ينحس بابتسامة هادئة.

كنا في غاية الامتنان له ؛ وبدأ عليه التأثر، وهو يصيح رافعا لنا يده اليمنى التي أظهرت كفاً سوداء :

- انتظروا ! لدي كذلك مفاجأة لكم ! ودخل دكانه وهو يعدو. لكن أبي الذي لم يكن له في العمل اليدوي، تحرك باندفاع ثم نزل بحركة سليمة على طريق المادلين، فيما عاود العجوز الكريم ظهوره على حافة الرصيف، ملوحاً بطول ذراعه بعلم كبير من أعلام الصليب الأحمر، وجدنا أنه من غير المجدي العودة للحصول عليه.

< > < >

عندما لحث أمي، التي كانت في انتظارنا بالنافذة، وصول هذه الحمولة، غادرت الشباك لتوها وخرجت إلى العتبة.

- جوزيف، قالت، أنت لن تدخل لي كالعادة كل هذه القاذورات في البيت، أليس كذلك ؟

- هذه القذارة، قال أبي، ستكون قواماً لأثاث من الطراز التقليدي، الذي لن تضجري أبداً من الاستمتاع به. أمهلينا فقط بعض الوقت للشغل فيه ! فقد أعددت خططي وأعرف ما الذي سأفعله.

وأملت أُمِّي رأسها وتهدت، بينما أسرع بول الصغير ليساعد في إنزال الحمولة.

ونقلنا كل الأشياء إلى الكهف، الذي قرر أبي أن نقيم فيه ورشتنا.

وبدأ عملنا بسرقة ملعقة من الحديد المطروق، من درج المطبخ، وهو العمل الذي قممت به أنا. وقد بحثت أُمِّي بعد ذلك عن هذه الملعقة زمنًا طويلاً، وعثرت فيها عدة مرات، لكنها لم تتعرف عليها أبداً، لأننا طرقتها بضربات المطرقة فأصبحت مسطرينا.

وبنفس هذا الأسلوب، الجدير بروبنسون كروزو دققنا على حائط الكهف خابورين من الحديد، ربطنا فيهما تزجة شغل بأربعة مسامير. كانت تؤمن ثباتها، وتعدّها على هذا النحو للعمل.

وثبتنا في التزجة منجلة كانت تصرُّ صريراً عند حركتها، فهدأنا من ذلك الصرير بتزييت أجزائها، ثم رتبنا العدة، التي كانت عبارة عن منشار، ومطرقة، وزوج من الكماشات، ومسامير من أطوال مختلفة، معوجة من أثر استعمالها السابق، وبراغي، ومفك، وفأرة، ومقص خشب.

وأولعت بهذه الكنوز، هذه الآلات الصغيرة، التي لم يتجاسر بول الصغير على لمسها، فقد كان يعتقد بالشراسة المؤذية للأدوات الحادة والقاطعة، ولا يرى فرقاً كبيراً بين المنشار وفك التمساح. ومع هذا، استوعب تماماً أن أشياء كبرى يجري إعدادها، فراح يعدو فجأة، وأحضر لنا وهو يبتسم ابتسامة جميلة، لفتين من الخيط، ومقصات ورق صغيرة، وصامولة كان قد عثر عليها بالشارع.

وتلقينا هذه الأدوات الإضافية بحالة طاغية من الابتهاج والعرفان، فيما أحمر بول من الاعتداد. وأجلسه أبي على طاولة صغيرة من الخشب، وأمره ألا ينزل من عليها.

- سنحتاجك بشدة، قال له، لأن العدد خبيثة للغاية، ما إن نبحت عن إحداها، حتى تفهم، وتخفني...

- لأنها تخاف ضربات المطرقة ! قال بول.

- بالطبع، قال أبي، لذا فأنت، من مكانك على هذه الطاولة ستراقبها لنا جيداً، بما يجعلنا نكسب الكثير من الوقت.

< > <

كل مساء، في السادسة، كنت أخرج من المدرسة معه، فنعود للمنزل ونحن نتحدث في العمل، ونشتري في طريقنا الأشياء الصغيرة الناقصة : غراء النجار، علبة دهان، صنفرة خشب. وكنا نتوقف غالباً الأحياء عند تاجر العاديات، الذي أصبح صديقاً لنا. فكنت أدخل بحرية وكر الجن هذا، بعد أن صار مسموحاً لي بالتجول في كل المكان. كان يوجد كل شيء في هذا الدكان، ومع هذا، لم تكن تجد فيه أبداً ما تبحث عنه. كنا نجيء بهدف شراء مقشة ونمضي بقمع طلمية. أو نشابة، ذات النشابة - بحسب قول صديقنا- التي قتلت الأمير بونابرت. وعند عودتنا للمنزل، كانت أمي، حسب التقليد المتبع، تجردنا من هذه الغنيمة، وتغسل لي يدي بسرعة شديدة، وتدعك أسلابتنا بماء الكلور. وفي أعقاب هذا الغسيل العلاجي، كنت أهبط درج الكهف، وألحق بأبي، الذي يكون بصحبة بول في الورشة.

كانت الورشة تضاء بمصباح نפט، مصنوع من النحاس، المبعج قليلاً، وله عدة شبيهة برأس المانادور، أي أن الفتيل الغاطس فيه، كان طرفه يخرج من

أنبوب نحاسي، ويصعد إلى زهرة صغيرة من المعدن تجعل اللهب يتفتح في تويج، وكان هذا التويج كبيراً نوعاً ما، ولكي يضيء بكفاءة، فإن غطاء المصباح الزجاجي، الذي يسميه الإنجليز بإحكام «بالمدة» كان متنفخاً من قاعدته بما يجعله ذا تأثير كبير في مضاعفة الضوء، في الوقت نفسه الذي كان يجعل من هذا المصباح آخر صيحة من صيحات الحداثة.

وبدأنا في عمل التوافيق والتباديل بين أجزاء الكراسي، وكان ذلك أمراً يشبه لعبة البازل، بقدر ما كان من الصعب إدخال القوائم في مشقبيات القواعد، كما أن هذه القوائم لم تكن جميعاً بنفس الطول.

وذهبنا نرُدّها لتاجر العاديات، الذي تظاهر أول الأمر بالاندهاش، ثم أعطانا حزمة من القوائم، حاول أن يقرنها كهدية بأن يبيعنا معها زوجاً من ركاب الخيل المكسيكية.

وبالاستعانة بالنجدة العظمى للغراء، الذي نعت أنا شرائحه في الماء الفاتر، نهضت الكراسي الست ثانية، ثم دهنت بالورنيش، ونسجت أمني بالخسوط الغليظة راحت مقاعدها، وأحاطت، بمهارة متوقعة، أطرافها بحبال مضفرة حمراء.

وصفّ أبي الكراسي حول طاولة غرفة الطعام، وتأملها طويلاً، ثم أعلن أن هذه الأثاثات المزخرفة، تساوي على الأقل خمسة أضعاف الثمن الذي دفعه، وأنّينا، مرة ثانية، على الأشياء العجيبة التي عرف كيف يكتشفها لدى تاجر العاديات.

ثم جاء دور الدولاب الصغير، الذي كانت أدراجة محشورة بما جعل من الضروري فكّه وتركيبه من جديد، بالاستعمال الصبور للفأرة.

هذا العمل الذي لم يستمر لأكثر من ثلاثة شهور، يحتل مع ذلك في

ذاكرتي، مكاناً محترماً، فقد اكتشفت فيه، على ضوء مصباح بوز الماتادور، ذكاء يدي، والكفاءة العجيبة للعدد البسيطة.

وفي صباح يوم من أيام الخميس، رصصنا على طول طرقة المنزل، أثاث الإجازة الكبيرة. وتمت دعوة العم جول، كمعجب متوقّع بهذا العمل، وحضّر صديقنا تاجر العاديات بصفة خبير.

وأعجب العم، وتفحص تاجر العاديات القطع، فأثنى على المشقبيات، واستمدح إحكام العاشق والمعشوق، ووجد أن اللصق بالغراء محكم، وبما أن الطقم في مجموعته لم يكن يشبه أي شيء، أعلن أنه يعد من النمط «الريفي التقليدي»، وأكد العم جول على ذلك بهز رأسه على طريقة الأطباء.

كانت أمي منبهرة بجمال هذه الأثاثات، وبحسب نبوءة أبي، لم تتمكن من أن ترفع عينيها من عليها. وقد أحييت أكثر من أي شيء آخر طاولة صغيرة مستديرة ذات ثلاثة أرجل، تم طلاؤها بعنايتي ثلاث مرات بالورنيش الذي له لون الخشب. وكانت فعلاً طاولة جميلة المنظر، لكنه كان من المستحسن النظر إليها عن لمسها، لأنه بوضع الأيدي مفرودة فوقها، كان يمكن تهيجها للانتقال إلى العالم الآخر، كما يفعل الوسطاء الروحيون مع الطاولات. واعتقد أن الجميع لاحظوا هذا المخذور، لكن أحداً لم يفه بكلمة كي لا يخذلوا انتصارنا بعمل هذا المعرض.

وقد سعدت فضلاً عن ذلك فيما بعد بأن أستنتج أن خطأ صغيراً يمكن أن يكون له فوائد عظيمة، فهذه الطاولة، التي تم وضعها بعد ذلك في ركن مضاء جيداً، بوصفها قطعة أثاث ثمينة، كانت تجذب إليها الذباب بما يسبب حالة من الهدوء والنظافة بغرفة طعام الإجازة، في العام الأول على الأقل.

وأخيراً، وفي اللحظة التي كان يتأهب فيها للرحيل، فتح الخبير حقيبة

عجوزاً كان يحملها، وأخرج غليوناً ضخماً حفرت رأسه على جذع شجرة، بحجم رأسي، وأهداه لأبي كطرفة نادرة. ثم قدم لأمي عقداً من الأصداف لبسته ذات يوم الملكة رانافالو، واعتذر بأنه لم يكن لديه علم بحضور العم جول -الذي لم يكن ليخسر شيئاً إذا انتظر- والذي استطاع بعون من السماء الحصول على عطلة هذا اليوم.

﴿ ﴾ ﴿ ﴾ ﴿ ﴾

ومرت الأيام الخمسة عشر الأولى من يوليو طويلة جداً. فقد ظلت الأثلاث في المطرقة. وظللتنا نحن في المدرسة، التي لم تكن نفعل فيها شيئاً يذكر.

كان المدرسون يقرأون لنا قصص أندرسون، أو ألفونس دوديه، ثم نذهب للعب في الفناء معظم النهار. وكنا نواصل بلا اقتناع هذه الألعاب المدرسية، التي كانت قيمتها تتضاءل ولم تعد محل سرور، بسبب الاقتراب البطيء والمؤكد، للألعاب الخالدة للإجازة الكبيرة.

كنت أردد لنفسني بلا توقف هذه الكلمات السحرية : الفيللا، غابات الصنوبر، التلال، صراصير الحقل. وقد كان بعض من صراصير الحقل على أطراف أشجار حديقة المدرسة. لكنني لم أرغب أبداً في الاقتراب منها. فقد وعدني أبي بآلاف منها، في متناول اليد دائماً تقريباً... لذا فعند سماعي لهذه المنشدات الضالعات التي تصر في آذاننا، ولا نلحمها على أعالي الأشجار، كنت أقول لنفسني -بلا أي شاعرية- «أنت، أيتها العجوز، عند ذهابنا إلى التلال، سأضع لك قشة في مؤخرتك، وتلك كانت رقة الملائكة الصغار في سن الثامنة.

وذات مساء، حضر العم جول والخالة روز للعشاء بمنزلنا. فكان عشاء ولقاء حوار، للتحضير للرحيل الكبير، الذي سيتم في اليوم التالي.

أعلن العم جول، الذي كان سعيداً بقدرته التنظيمية، أنه أولاً، وبسبب حالة الطرق، لم يكن من السهل إيجار عربة مناسبة، فضلاً عن أن عربة كهذه كانت ستكون الكثير، -حوالي العشرين فرنكاً ربما !

لذا فقد استأجر عربتين: عربة نقل عفش صغيرة، لنقل عفشه الخاص، وزوجته وطفله، بمبلغ سبعة فرنكات ونصف. وكان متضمناً في هذا السعر أجرة عامل أثاث يعمل في خدمتنا طوال اليوم.

كما وجد لنا نحن فلاحاً، يدعى فرانسوا، لديه مزرعة على بعد بضعة مئات من الأمتار عن الفيلا. وكان هذا الفرانسوا يأتي مرتين أسبوعياً لبيع فاكهته بسوق مرسيليا، فاتفق معه على أن ينقل أثاثنا، عند عودته للمزرعة، بسعر معقول هو أربعة فرنكات، وأسعد هذا الاتفاق أبي، لكن بول تساءل:

- ماذا عنا نحن، هل سنركب معه عربته ؟

- أنتم، قال المنظم، ستركبون الترام حتى الباراس، ومن هناك سترافقون فلاحكم سيراً على الأقدام. سيكون لأوجستين مكان في العربة، وسيتبع الرجال الثلاثة الفلاح سيراً على الأقدام.

وقبل الرجال الثلاثة هذه الفكرة باغتباط. وتحولت المحادثة التي دامت حتى الحادية عشرة لشيء جنوني، فقد تحدث العم جول عن صيد الحشرات، مما جعلني طيلة الليل أحلم بأني أطلق النار على أم أربعة وأربعين، والجراد، والعقارب.

وفي تمام الثامنة من صباح اليوم التالي، كنا جاهزين، مرتدين ثياب الإجازة، سراويل من القماش الخام، وقمصاناً قصيرة الأكمام، بيضاء، تزيناها

أربطة عنق زرقاء. هذه الثياب كانت قد صنعتها لنا أمي، وكنا قد اشترينا من محل كبير قبعاتنا ذات الحواف الطويلة، وأخفافنا ذات النعال المصنوعة من الجبال.

وارتدى أبي سترة عسكرية، لها جييان كبيران مذهبان، وقبعة بحرية زرقاء، بينما بدت أمي شابة صغيرة وجميلة في ثوبها الأبيض المخلى بزهور صغيرة حمراء. والذي كان لائقاً عليها بشكل رائع.

أما أختنا الصغيرة، التي كانت تفتح عينيها الراستعين السوداوين تحت طاقة زرقاء، فقد بدا عليها القلق لأنها فهمت (كما تفهم القطط) أننا سنغادر البيت.

كان الفلاح قد حدد لنا سلفاً، أن تحديد ساعة رحيلنا لا يتوقف على اجتهاده، وإنما على سرعة تصريفه لمشمشه.

ولم يحدث ذلك بسرعة في هذا اليوم، لأنه حتى ساعة الظهيرة لم يكن قد جاء. لذا تناولنا في البيت الذي أصبح خاوياً، طعام غداثنا، من السجق الجاف واللحم البارد، ونحن نهرع بلا توقف إلى النافذة لترقب رسول الإجازة. الذي ظهر في نهاية المطاف.

﴿ ﴾ ﴾

كانت العربة زرقاء زرقاً باهتة، بدا من تحتها لون الخشب.

وكانت عجلاتها العالية تفصلها عن الجانبيين مسافات كبيرة، مما يجعلها حين تصل إلى حافة المسافة، عند كل دوران، تصطدم اصطداماً مدوياً، وكانت

غامض كبير، بسبب الحاجز المدهون الذي يفصلنا عنها، والذي كان يمنع أيًا من كان من الحديث معها. لكثرة ما تعرفه من أسرار.

وببطء، وصبر، ويعون من الرجأت وجذبات الفرامل، انزلت بين الواقفين إلى جوارى، وتمكنت من الوصول في النهاية للاقتراب منه، تاركًا بول لمصيره الشمس، فقد كان مزنوناً بين ركبتين عاليتين لاثنتين من الدركيين، ودفعت به رجّة العرية، للاصطدام بأنفه بفخذي سيدة ضخمة، كانت تراوح مكانها على نحو خطر.

وعندما وصلت إلى المقدمة، كانت القضبان أمامي تتسارع في اتجاهي بشكل مدوّخ، ورفعت الريح بفعل السرعة رفرف كاسكتيتي، وطنت في صماخ أذني، فقد تخطينا في ثانيتين حصاناً منطلقاً بأقصى سرعة.

ولم يكن قد حدث لي أن وجدت نفسي في مثل هذه الآلات الحديثة، في هذا الزهو المنتصر لكروني إنساناً صغيراً، يغزو المكان والزمان.

لكن هذا النيزك من الحديد والصلب، الذي اقترب بنا من التلال، لم يذهب بنا حتى عندها. فقد توجب علينا مغادرته في الضاحية القصوى لمرسيليا، بمكان يدعى الباراس، ليكمل هو عدوه المجنون حتى أوبان.

وفرد أيّ خارقة نظر فيها، وقادنا إلى مدخل طريق مترب، ينسرب من المدينة بين حائتين. فدلّنا فيه بخطوة وثيقة، وراء جوزيف الذي حمل أختنا الصغيرة على كتفيه.

كان هذا الطريق الريفي جميلاً، فقد كان يمتد بين حائطين من الطوب المحروق بالشمس، تتدلى من فوقهما نحونا الأوراق العريضة لأشجار التين، وتعريشات الياسمين البري، وأفرع أشجار الزيتون العتيقة. وفي أسفل الحوائط كان شريطان من الأعشاب البرية والنجيل، يقوم اتساعهما دليلاً على أن نشاط

أطرها الحديدية تقفز على بلاط الطريق، ومحاورها تئن، وحوافر البغل الذي يجرها يتطاير تحتها الشرر... وكانت تلك هي عربة المغامرة والأمل...

ولم يكن الفلاح الذي يقودها يرتدي سترة ولا قميصاً، بل صديرية مشغولة من صوف غليظ، يشع قذارة، وعلى رأسه قبعة بلا ملامح، ذات رفرف رخو. لكنه كانت له أسنان بيضاء لامعة تشع في وجه كوجه امبراطور روماني. كان يتحدث بلكنة ريفية، ويضحك، ويطلق بغير طویل مجدول من الجلد بطرف مقبض من الخيزران.

وبمساعدة من أبي، وكثير من الانزعاج من المجهودات التي قدمها بول الصغير (الذي تعلق بأكبر قطعة أثاث معتقداً أنه سيمحملها)، شحن الفلاح العربية، بما يعني أنه كَوَّم الأثاث بشكل هرمي. وأمن بعد ذلك توازنها بتشبيكها بالحبال، والجداول، والخيوط، ثم ألقى فوق كل ذلك جميعه غطاءً ممزقاً من الخيش. وصاح بلكنته الريفية:

ها نحن الآن جاهزون ! وأمسك بلجام البغل، الذي تحرك بطريقة طابور الأسرى والجرحى، المصحوبين بالشكومات العنيفة، تلك التي كانت تنهال على لجام الحيوان قليل الإحساس.

وتبعنا الأثاث، كما لو كنا نتبع عربة جنازة، حتى شارع ميرنتيه، ثم تركنا الفلاح، وتوجهنا لأخذ الترام.

وفي الضبعة المتألقة لحديدها، والاهتزازات المقطقة لنوافذها الزجاجية، وصريها الطويل الحاد في المنحنى، انطلقت العربية العجيبة نحو المستقبل.

ولأننا لم نجد مكاناً نجلس فيه على الكنبات الطويلة، وقفنا - وبالمعجزة - في مقدمة العربية. فكنت أرى ظهر السائق. الذي كان يضع يديه على ذراعي القيادة، فيطلق ويكبح على التوالي قفزات الوحش، بهدوء متسلطن. ووقعت تحت تأثير الإعجاب بهذه الشخصية الشديدة الجبروت، التي تحولت إلى سر

عمال الطرق كان أقل أهمية من الطريق.

كنت أستمع لصريير الصراصير، وكانت المزاريب الساكنة، على الحائط العسلي اللون، تفتح أفواهها لتلقى الشمس، وكانت السحالي الصغيرة الرمادية تلتمع وهي تتحرك وسط مزاريب الرصاص، وراح بول من فوره يتصيدا، لكنه لم يظفر منها إلا بأذيال تتلوى. وشرح لنا أبي أن هذه الحيوانات الصغيرة اللطيفة، تترك أذيالها وتفر كاللصوص الذين يتملصون من مستراتهم عندما يمسكهم البوليس ليهربوا. فضلاً عن أنها تنمو لها أذيال جديدة خلال عدة أيام، لتستخدمها في فرار جديد... وبعد ما يربو على الساعة من المشي، قاطع طريقنا طريق آخر. عبر ما يشبه الميدان المستدير، الذي كان خالياً تماماً، إلا من دكة حجرية، في فراغ أحد الجوانب الأربعة لدائرة الميدان، وهي التي جلست عليها أمي وفرد أبي خارطته.

— هذا هو المكان، قال، الذي غادرنا فيه الترام، وهذا هو المكان الذي نحن فيه الآن، وهذا هو ميدان «الفصول الأربعة» الذي سيقابلنا فيه ناقل أثاثنا، والذي سنتنظره فيه.

وتأملت بدهشة خط السير، المتثنّي الذي كان يتخذ طريقنا، والذي كان يلتوي بشكل حاد.

— مجانيين عمال الطرق هؤلاء، قلت، لأنهم يقيمون طريقاً مفتولاً بهذا الشكل.

— ليس عمال الطرق هم المجانين، قال أبي، إن مجتمعنا هو الغارق في العبث.

— لماذا ؟ سألت أمي .

— لأن هذه الالتواءات الشديدة فرضت علينا بسبب أربع أو خمس ملكيات

كبيرة، منعت الطريق من المرور بها، وهي تمتد خلف الحوائط... فهذه هي فيللتنا، قال وهو يشير بأصبعه على نقطة في الخارطة... إنها تبتعد بشكل مستقيم مسافة أربعة كيلو مترات عن الباراس... ولكن بسبب بعض الملاك الكبار، ستتكد للوصول إليها تسعة كيلو مترات.

- هذا كثير على الأطفال، قالت أمي، ولكنني فكرت في أنه كان كثيراً عليها هي. وهو السبب الذي جعلني عندما قام أبي لمعاودة السير، أطلب بعض دقائق أخرى للراحة، متعللاً بأن ألما أصابني في كاحلي.

ومشينا لمدة ساعة أخرى بين الحوائط التي أجبرتنا على الدوران كالبلي في لعبة الأطفال... وعاود بول صيد أذبال السحالي في المزاريب. لكن أمي أقتتعت بالعدول عن ذلك، ببعض الكلمات المؤثرة التي أطفرت الدموع في عينيه، فاستبدل هذه اللعبة المتوحشة بتصيد الجرادات الصغيرة، التي راح يقتلها بطحنها بالأحجار.

أثناء ذلك راح أبي يشرح لأمي، أنه في مجتمع المستقبل، ستتحول كل القصور إلى مستشفيات، وستسقط كل الحوائط، وستمد كل الطرق باعتدال.

- بهذا الشكل، قالت، أنت تريد القيام ثانية بالثورة.

- ليست الثورة هي ما يجب القيام به. فالثورة كلمة أسيء اختيارها، لأنها تعني القيام بدورة كاملة ينتج عنها أن يهبط الذين في أعلى السلم الاجتماعي لأسفله. لكنهم سرعان ما يعودون إلى موقعهم القديم... وتبدأ الدورة من جديد، فهذه الحوائط الظالمة لم تقم في ظل النظام القديم، بل إن جمهوريتنا لم تتسامح فحسب مع قيامها، وإنما هي التي بنتها.

كنت أعشق هذه المداولات السياسية - الاجتماعية التي يقوم بها أبي، وكنت أفهمها بطريقتي، وأسأل نفسي لماذا لا يفكر رئيس الجمهورية أبداً في

الإستعانة بأبي، على الأقل خلال الإجازات، بما أن بمستطاعه خلال ثلاثة أسابيع فحسب أن يحقق السعادة للبشرية.

وانعطف طريقنا مرة واحدة لطريق أوسع كثيراً، لكنه لم يكن أفضل حالاً من سابقه.

- نحن قد وصلنا تقريباً إلى مكان اللقاء، قال أبي. فهذه التعريشات التي تشاهدونها هناك، هي تعريشات ميدان الفصول الأربعة ! وانظري ! قال فجأة وهو يشير إلى العشب الكثيف الذي يكسو أسفل الحائط، هذه بشرى رائعة !

- إنها القضببان ! قال أبي، قضبان الخط الجديد للترام ! الذي سيعمل قريباً جداً !

كانت القضببان تمتد على طول الطريق، لكن الفطر الذي نما عليها يؤكد أن الذين قرروا لإنشاءها لم يقدروا مدى الضرورة المستعجلة لها.

وصلنا إلى الحانة الريفية بميدان الفصول الأربعة. وكانت على مفترق الطريق، عبارة عن بيت صغير مختفٍ بين تعريشتين، خلف نافورة عالية مكسوة بالحصى المزيد. وكان الماء الذي يخرج من الصنابير الأربعة المكسوة، يردد في الظل صوت الخريف الطازج.

كان المنظر بديعاً، تحت سقائف هذه التعريشات، أمام المناضد الصغيرة الخضراء، لكننا لم ندخل هذه الخمارة، التي يخفي لُطْفُها الخطر المزدق.

وجلسنا على الحاجز الذي على حافة الطريق، وفتحت أمي كيس الزوادة، ورحنا نلتهم قراقيش زمان الذهبية اللون، والسجق الطريّ الدسم (الذي كنت أفتش فيه أولاً عن حبة الفلفل الأسود، كما نفتش عن حبة الفول الحية بشطائر عيد الفصح)، والبرتقال الذي نضج جيداً على الشجيرات الإسبانية.

وفجأة، قالت أمي، بقلق :

- جوزيف، هذا بعيد جداً !

- ولم نصل بعد ! قال أبي بغبطة... فما زال أمامنا سير ساعة !

- نحن لم نحمل شيئاً اليوم، فما بالك لو كنا حاملين أشياء...

- سنحملها، قال أبي .

- يا أمي، نحن ثلاثة رجال، قال بول. ولن نتركك تحملين شيئاً.

- طبعاً ! قال أبي. فسيكون الأمر نزهة. نزهة طويلة بعض الشيء ولكنها نزهة صحيحة ! بالإضافة إلى أننا لن نجني إلا في عيد الميلاد، وعيد الفصح، والأجازة الكبيرة، أي ثلاث مرات في العام ! كما أننا سنبدأ الرحلة في الصباح الباكر، وتغذي على العشب، بمنتصف الطريق. ثم نتوقف مرة أخرى لتتبلع بشيء. وقد رأيت بنفسك هذه القضبان. وسأتحدث بشأنها مع شقيق ميشيل، الذي يعمل صحفياً لإثارة الموضوع، فهو أمر مرفوض أن تترك هكذا للصدأ وقتاً طويلاً، وأراهنك أنه قبل مضي ستة شهور، سوف ينقلنا الترام حتى المفاقر، أي على مسافة ستمائة متر من هنا، فلا تبقى أمامنا سوى مسافة مشي ساعة.

ورحت أتخيل القضبان تخرج من العشب وتتشق في بلاط الطريق، بينما تتعالى على البعد الزمجرة الصماء للترام.

< > < >

إلا أنني، حين رفعت رأسي، لم تكن الآلة الجبارة هي التي شاهدها، وإنما

الهرم الرجراج لأمتعتنا.

وصاح بول صبيحة فرح وجرى للقاء البغل، الذي كان الفلاح يجذبه من مؤخرته ورقبته وهو مباعد بين ساقيه... وبهذا الشكل صعد به إلى المكان الذي كنا فيه. وتقدم نحونا، ممسكا باللجام، ثملاً من الاعتداد والتوجس، يبتسم ابتسامة ما بين الفرح والغم، بينما كانت تجتاحني حالة من الغيرة المخجلة منه.

وتوقفت العربة، وقال الفلاح : الآن سنجلس السيدة .

وفرد كيساً من الخيش، على مقدم سطح العربة، عند أطراف أذرعها، وأعان أيّ أمي على الصعود، فجلست مدللة ساقيهما، ووضع بين ذراعيها الأخت الصغيرة، التي كان فمها ملغمطاً بالشيكولاتة، وسار بحذاء العربة، بينما رحت أنشعلني في عريشها، وأتبع الموكب وأنا أترقص .

ولم يهدأ بول، بل راح يتبختر أماماً وخلفاً بشكل مزهو، على إيقاع خطو البغل، الذي كنت أكبح بشدة في نفسي الرغبة الحارقة في القفز على كفله.

وكان الأفق محتجباً أمامنا وراء الأشجار الضخمة العالية المورقة التي أحاطت بمنعرجات الطريق.

وبعد عشرين دقيقة من المشي، اكتشفنا فجأة قرية صغيرة، منتصبة فوق تل، بين واديين، وكان المنظر مسحوباً من الجانبين يميناً ويساراً بصخرتين عموديتين، يسميهما الريفيون العوارض.

— ها هي قرية التعريشة ! قال أبي . ووصلنا إلى سطح مطلع وعر .

— هنا، قال الفلاح، يجب أن تنزل السيدة، ونزق العربة قليلاً. وتوقف البغل من تلقاء نفسه، وقفزت أمي إلى الأرض المغبرة.

وأنزل الفلاح بول، ثم اتجه إلى أسفل بطن العربة، وفتح ما يشبه الدرج،

وأخرج منه زاويتين خشبيتين. أعطى واحدة منها لأمي التي أصابتها الدهشة.
- هذه سادة، قال لها. عندما أطلب منك، ستحشريها من الخلف ما بين
العجلة والأرض.

وبدت السادة على أمي لأنها ستشارك في عمل رجالي، وأمسكت بالسادة
الغليظة بيديها الصغيرتين.

- أنا، قال بول. سأضع الأخرى تحت العجلة الثانية.

وقبل الفلاح اقتراحه، وأصابني الكدر العميق لهذا العدوان الجديد على
حقوق الابن البكر. ولكنني أعيد لي تمام اعتياري، عندما أعطاني الفلاح
سوطه، الذي كان مضفورا، وشديد الغلظة وقال لي :

- أنت، ستضرب مؤخرة البغل...

- على مؤخرته ؟

- في كل مكان. وبالمقبض !

ثم بصق في يديه، وأدخل رأسه بين كتفيه، ومد ذراعيه للأمام، وتقوس
متمرسا وراء العربة، فكان جسده في وضع أفقي تقريبا. واتخذ أي نفس الوضع
مثله، وصاح بكل قواه. ورحت أضرب الحيوان، بغير شراسة، كما لو أنني
كنت فقط أعطيه الإشارة ليبذل جهده، وارتح كل العتاد، وقطع مسافة ثلاثين
مترا ؛ بعدها صاح الفلاح، وهو يلهث، بغير أن يرفع رأسه :

- السادة ! السادة !

ووضعت أمي، التي كانت تراقب العجلة، الزاوية الخشبية بسرعة، تحت
الإطار الحديدي ؛ وقَلَّدها بول على الناحية الأخرى، بسهولة ملحوظة، وتوقفت
العربة للراحة خمس دقائق. وتحين الفلاح الفرصة ليقول لي إنه كان يجب أن

أضرب البغل بقوة أشد، وإنه كان من المستحسن أن أضربه تحت بطنه، مما جعل بول يصيح:

- لا إلا هذا إلا أريد هذا !

وعندما بدا على أبي التأثير لرقعة قلب الغلام الصغير، أشار بول بأصبعه إلى الفلاح، الذي أصابته الدهشة، وهو يصيح :

- لا بد من فقاً عينيه !

- هو هوه ! قال فرانسوا باستنكار، فقاً عيني أنا ؟ ما هذا المترواح ؟

أعتقد أن من الأوفق أن نحسبه في الدرج. واتخذ حياة من سيفتح الدرج، وجرى بول وأمسك بسرويل أبيه.

- هذا ما يحدث، قال أبي في وقار، فعندما نحاول أن نفقاً أعين الناس، ننتهي بأن نحسب في الأدراج.

- غير معقول ! صرخ بول، أنا لا أريد هذا ؟

- يا عم، قالت أُمي، ربما أمكننا التريث قليلاً، فهو لم يقل هذا إلا على سبيل الضحك.

- حتى ولو للضحك، قال فرانسوا، هذا شيء لا يقال، وخاصة أن يفقاً عيني في اليوم الذي اشترت فيه نظارة شمسية.

وأخرج من جيبه نظارة من النوع الذي يشبك بالأنف ذات زجاج أسود من سقط المتاع الذي يباع في السوق بأربعة قروش.

- يمكنك أن تضعها، قال بول، حتى على طرف أنفك.

- ولكن، أيها الثعس، قال الفلاح، عندما تكون أعيننا مفقوءة، ونضع فوق ذلك نظارات سوداء، فلن نرى شيئاً على الإطلاق ! على العموم، هذه المرة لن

أقول لك شيئاً... هيا بنا !

وعاد كل منا لمكانه. وأخذت أضرب البغل أسفل بطنه، ضرباً خفيفاً، ولكن مع الصياح بالأوامر في أذنيه، في الوقت الذي كان الفلاح ينعت «بالحصان العيان. الرمة» ويتهمه بأنه أكل خراء.

وبجهد جهيد وصلنا القرية، أو بالأحرى العزبة، التي كان قرميد أسقفها الأحمر من النوع ذي الحجم الكبير الأثري، ونوافذها من النوع الصغير جداً الذي يطل عبر جدران سميكة للغاية.

كان يوجد بها إلى يسار الداخل فناءً محاطٌ يحده حائطٌ مائل إلى الوراء، يعلو حوالي عشرة أمتار. أما إلى اليمين فكان الطريق. قلت : هو الطريق الرئيسي، إذا لم يكن بها طريق آخر. لكننا لم نقابل سوى طريق عرضي صغير لا يزيد طوله عن العشرة أمتار رغم أنه كان ينعطف بزاويتين قائمتين ليبلغ ميدان القرية. وكان الميدان الصغير، الأقل من فناء مدرسة، تظله أشجار التوت العجوزة، ذات الجذور الممتدة لأعماق بعيدة، وشجرتا أكاسيا، نحاولان تجاوز قبة أجراس الكنيسة في تطلعها صوب الشمس.

كانت في منتصف الساحة نافورة تُنشد وحدها. عبارة عن حوض يشبه الصدف من الحجر الخشن، مثبت كأنه شمعان، حول نصب مربع، تخرج منه أنبوبة من النحاس.. وتم فك البغل ليستريح (بالطبع لا يمكن تصور الشيء نفسه بالنسبة للعربة)، وقاده فرانسوا إلى الحوض، فشرب الحيوان طويلاً، وهو يذب عن كسحه بذيله.

ومر فلاح نحيف بعض الشيء ذا ملامح نكراء، تحت لبدة تصلبت من الوسخ. كان له حاجبان أصهبان، غليظان كسنبليّ شكير. وعينان صغيرتان سوداوان تلمعان كأنهما في عمق نفق. وكان له شارب ضخم أشقر يغطي فمه، وقد نبتت على وجنتيه لحية لم تخلق منذ ثمانية أيام. وعند مروره بالبغل،

بصق، ولكنه لم يقل شيئاً. ثم أخفض بصره، وابتعد وهو يتمطوح.

- لديهم هنا شخص غير ودود، قال أبي.

- ليسوا جميعاً على هذه الشاكلة هنا، قال الفلاح، فهذا الشخص يريد إلذائي، لأنه أخي.

وبدا له هذا السبب شرحاً كافياً، واقتاد البغل، الذي أسقط من مؤخرته بعض الفضل، وعندما انتهى، أبرز شرجه خارجاً، على شكل حبة الطماطم.

وقد خيل لي لهذا أنه مريض وسيموت، لكن أبي طمأنني :

- أنه يفعل هذا للتطهر، قال لي، فهذه هي طريقته في تنظيف نفسه.

وأعيد ربط البغل بين ذراعي العرية، وغادرنا القرية، وبدأت أدخل عالماً من الفتنة وشمرت بميلاد حب صار ملازماً لي مدى حياتي.

كانت تمتد أمامي في منظر طبيعي نصف دائري يصل إلى السماء، غابات من الصنوبر تفصل بينها الأودية التي كانت تتداعى كالأمواج أسفل ثلاث قمم صخرية. ومن حولنا، كانت سفوح التلال المنخفضة تراققنا أثناء الطريق. الذي النف وراء قمة بين واديين، كانت تشبه طائراً عظيماً أسود، ساكناً، تجسد في وسط السماء. وكانت الضوضاء النحاسية لصراصير الحقول، تصعد من جميع الجهات كيمحر من الأنغام. كما لو أن تلك الصراصير كانت تتعجل الحياة، وتعرف أن الموت يأتي مع المساء.

وأشار لنا الفلاح إلى القمم التي كانت تعلو إلى السماء في عمق المنظر. كانت إلى يسارنا، شعقة كبيرة بيضاء، تتألق في الشمس الغاربة، على رأس مخروط هائل مائل للاحمرار.

- انظروا، قال الفلاح، لهذه الرأس الحمراء.

وكانت إلى يمينه تلتصع شعبة أخرى مائلة للزرقة، أعلى قليلاً من الأولى، مكونة من مصاطب ثلاثة متحدة في مركز واحد، تتسع باتجاه قاعدتها، كدوائر الكرانيش الثلاثة لفستان الفرو الذي ترتديه الآنسة جويمار.

- وهذه، قال الفلاح هذه هي «التأومي».

وبينما كنا نبدي إعجابنا بهذه الكتلة الجبلية، أضاف :

- يسمونها كذلك «توبي»

- وما معنى ذلك ؟ سأل أبي .

- معناه أن اسمها «توبي» أو «تاومي» .

- الأصل أن لها اسمين، ولكن لا أحد يعرف لماذا. أنت أيضاً لك اسمان، وأنا كذلك.

ولكي يقتصر الكلام على هذا الشرح الحكيم، الذي بدا لي منقوصاً. طرقت بسوطه عند أذني البغل، الذي أجاب عليه بضربة.

كان يظهر في عمق المنظر إلى اليمين، ولكن أبعد من الشعفتين، سفح مائل يمتد إلى السماء، يحمل على كتفيه شعبة الصخر الثالثة، الجانحة إلى الورا، والمهيمنة على كل المنظر.

- هذه. هي جارليان، وأويان تقع أسفلها من الناحية الأخرى.

- أنا ولدت في أويان، قلت .

- إذن، فأنت من هنا، قال الفلاح.

ونظرت نحو أسرتي بافتخار، وصرت أرى المشهد الطبيعي الجليل من حولنا بم عاطفة جديدة.

- وأنا، قال بول بقلقى، أنا ولدت في سان - لو. فهل أنا أيضا من هنا ؟

- إلى حد ما، قال الفلاح، إلى حد ما، تقريبا...

وانسحب بول، مغیظاً. ورائي. ولحقه من حديث الفلاح، همس لي :

- إنه أبله !

لم نصادف بعد ذلك في طريقنا، لا عزية، ولا مزرعة، ولا حتى كوخ. ولم يكن الطريق سوى خطين أحوديين يفصلهما تنوع من الأعشاب البرية، التي كانت تحتك ببطن البغل أثناء سيره.

كان السفح يوغل في عمقه إلى يميننا، وكانت الصنوبرات الجميلة تطل بقساماتها من فوق الأشواك الكثيفة لأشجار السنديان، التي على الرغم من قصرها، لم تكن تطاول أعلى من قامة طاولة، كانت تطرح ثمار البلوط، فكانها الأقزام من البشر الذين لهم سحن الرجال.

وراء الوادي الصغير، كان ينتصب تلّ متطاول، له هيئة البارجة الحريئة ذات السطوح الثلاثة المترابكة فوق بعضها. وقد امتدت فوقه ثلاث غابات من الصنوبر تفصلها عن بعضها قمم من الصخور البيضاء.

- انظروا، هذه سواعد الروح القدس.

وعند ذكره لهذا الاسم، «الشديد الظلامية»، قطب أبي حاجباً علماًنيّاً، وسأل : أهم متدينين جداً أهل بلدكم ؟

- بعض الشيء، قال الفلاح .

- هل تذهب أنت لصلاة الأحد في الكنيسة ؟

- حسب الظروف... ففي أوقات الجفاف لا أذهب، لكنها حين تمطر، وتعد بالخير، أذهب، فالله الرحيم يكون في حاجة لمن يفهمه.

وحاولت أن أشرح له أن الله غير موجود، وهو الأمر الذي كنت أعرفه من مصدر أكيد ؛ ولكن بما أن أبي نفسه قد صمت، تراجعت ولزمت الهدوء.

وانتبهت فجأة إلى أن أمي لم تكن تستطيع المشي بسهولة، بسبب من كعب حذاءها موديل لويس الرابع عشر العالي. ويغير أن أقول شيئاً، لحقت بالعربة، ونجحت في أن أسحب منها الحقيبة الصغيرة، التي كانوا قد دسوها من تحت الجبال، في مؤخرة العربة.

- ماذا فعلت ؟ قالت مندهشة.

ووضعت الحقيبة على الأرض، وأخرجت منها زوج أخفافها، اللذين كانا في مقاس أخفافي. فأبتسمت لي ابتسامة رقيقة رائعة، وقالت :

- أيها العبيط، نحن لا نستطيع التوقف هنا !

- ولم لا ؟ سنلحق بهم بعد ذلك !

وجلست على حجر بجانب الطريق، وغيّرت حذاءها، أمام عيني بول، الذي جاء يشاهد العملية، والتي بدت له هذه الحكاية متهورة جداً من وجهة نظر الحياء، فقد راح يراقب كل الاتجاهات، لكي يطمئن إلى أن أحداً لن يتمكن من الاطلاع على سيقان أمه.

وأمسكت بأيدينا، وهرولنا معاً حتى لحقنا بالعربة، حيث أعدت الحقيبة الشمينة لمكانها. ما كان أصغرهما في تلك اللحظة ! كانت لها هيئة فتاة في الخامسة عشرة، كانت وجنتاها حمراوين، ولاحظت بسعادة أن سماتي رجليها بدتا أكثر سمنة.

كان التل يهبط إلى يسارنا، بمصاطب ضيقة، إلى عمق وادٍ مخضوضر.
قال الفلاح لأبي :

- انظروا لهذا، إن له الآخر إسمين، فهم يطلقون عليه الوادي أو المجرى .

- هو هو هـ ا قال أبي مستظرفاً، وهل يوجد به مجرى ؟

- بالطبع، قال الفلاح، مجرى جميل .

واستدار أبي ناحيتنا : يا أولاد، في عمق هذا الوادي، يوجد مجرى ا

واستدار الفلاح بدوره، وأضاف : عندما تهطل الأمطار بالطبع...

كانت مصاطب هذا الوادي مغطاة بخمائل الزيتون، المكونة كل منها من أربع أو خمس شجيرات، مزروعة بشكل دائري، ومائلة إلى الورا قليلاً لكي تتمكن من نثر أوراقها التي تشابكت معاً. كما كانت توجد أيضاً أشجار اللوز ذات الخضرة الناعمة، وأشجار المشمش اللامعة. ولم أكن أعرف أسماء هذه الأشجار، لكنني أحببتها من فوري.

ولم تكن الأرض فيما بين الأشجار مزروعة، لكنها كانت مغطاة بعشب أصفر وأسمر، عرفنا من الفلاح أن اسمه الباووكو. وكان نوعاً شبيهاً بالكأ الجاف، إلا أن هذا كان لونه الطبيعي بغير أن يجف. وكان هذا الباووكو في الربيع، ومشاركة منه في الابتهاج العام، يئذل جهده ويخضر اخضراراً باهتاً. ولكنه على الرغم من تلك الهيئة المجذبة، نشيط ومعمّر، وجريت أتلّمس النباتات التي بلا فائدة.

في هذا المكان رأيت للمرة الأولى باقات خضراء غامقة. تنمو في هذا الباووكو وتطل من أشجار الزيتون في خصل صغيرة، وكانت تصعد منها رائحة طاغية، رائحة لها حضور الضباب الذي غلفني كلية، فانهرفت عن الطريق، وجريت أتلّمس أوراقها الصغيرة.

لقد كانت هذه الرائحة غير المعروفة لي نفاذة وقوية، تفتحت في كل رأسي وتوغلت حتى القلب. كان هذا هو نبات السعتر، الذي نما في حصباء الأرض البور، والذي هرعت باقائه لاستقبالي، لتزف إلى التلميذ الصغير روائح إنباذة

فرجيليوس التي سيتعرف عليها في المستقبل.

وقطفت بعضاً من أغصانها، ولحقت بالعربة وأنا أتشممها بأنفي.

— ما هذا ؟ قالت أمي . وأخذتها من يدي، وتشممتها بعمق :

— هذا هو السعتر الأخضر، قالت. سوف نستعمله في طبخة يخنة بالأرانب رائعة.

— بالسعتر ؟ قال فرانسوا ببعض الاحتقار. الأفضل لك أن تستعملي (فلفل الثوم)

— وما هذا ؟

— كأنه نوع من السعتر، وقريب في نفس الوقت من النعناع، ولكن لا يمكن التعرف عليه بالوصف، سوف أريك إياه.

وظفق في أعقاب ذلك يتحدث عن السعتر البري، وإكليل الجبل، والمر ؟ والينسون، التي يجب أن تُحشى بها بطن الأرنب البري، والتي «نفرمها ناعماً». ناعماً، ناعماً مع «قطعة كبيرة من شحم الخنزير».

كانت أمي تستمع إليه، في انتباه شديد. بينما رحت أنا أتشمم الأغصان المقدسة، وأنا أحس بالخجل.

كان الطريق يصعد باستمرار، ويعبر من حين لآخر هضبة صغيرة، وكنا عندما ننظر خلفنا، نلمح امتداد وادي الهوفون، تعلوه سحابة من البخار، تتوغل بعيداً حتى البحر اللامع. وكان بول يتقافز في كل الجهات، ويضرب بالحجارة جذوع أشجار اللوز، وأسراب صراصير الحقل الهاربة، التي ترف بأجنحتها وتطن في سخط.

واعترضنا تنوءٌ أخير، فظ مثله مثل التنوء الأول، وبفضل دفعة من ضربات

الكرباج، راح البغل يقوس ظهره على شكل منحني الدائرة، ثم يفرد مرة واحدة، وهو يهز رأسه مع كل ضربة من مقبض السوط، مما يجعله يجر العربة المنبعجة بطريقة ماهرة، فراحت حمولتها تتأرجح يمينا ويسرة كالبيوت، وهي تكسر في طريقها أغصان الزيتون. لكنها اصطدمت في إحدى تأرجحاتها بغصن زيتون أقوى من رجل المنضدة التي كانت نائمة بالحمولة، فانكسرت وسقطت محدلة رنيئا على رأس أبي المصعوق.

وبينما تكفلت أمي بالحيولة دون تورم رأس أبي، وراحت تضغط له الكدمة بقطعة معدنية من فئة القرشين، اندفع بول الصغير يرقص وهو يضحك ملء شديقه. أما أنا، فقد للممت رجل المنضدة المذنب، وسعدت عندما تحققت من أن الكسر الطولي الذي حدث فيها كان مائلا بما يسهل عملية إصلاحها.

وهرعت أرف هذه النتيجة إلى أبي، الذي كان مقطبا وجهه، من جراء الضربة التي أصابه بها تمثال نابليون الثالث المنحوت برجل المنضدة فسحق رأسه.

ولحقنا بالعربة، وكانت قد توقفت في غيضة بأعلى المرتفع، لكي يتمكن البغل المستشهد من التقاط أنفاسه. وكان يتنفس فعلا بعمق محدثا ضجة شديدة، وهو ينفخ ضلوعه النحيفة التي كانت أشبه ما تكون بطوق محشور في كيس، وكانت خيوط اللعاب النحيفة تسيل من مشافره الطويلة المطاطية.

في هذه الأثناء، أشار لنا أبي - بيده اليسرى -، فقد كان يدعك طيلة الوقت ييمناه رأسه المتألمة - على بيت صغير، بالجهة المقابلة، كان نصف مخفف وراء شجرة تين ضخمة.

- ها هو، قال. ها هو الحصن الجديد. بيت الإجازات، وهذه الحديقة التي إلى يساره لنا أيضا.

كانت الحديقة محاطة بسياج صديء، وطولها على الأقل مائة متر. ولم أستطع أن أتبين من البعد فيها سوى غابة من الزيتون واللوز، تقاطعت أغصانها

الجنونة فوق أدغال متداخلة من الشوك، إنها الغابة البكر الجميلة، التي كنت قد رأيتها في كل أحلامي، فاندفعت صوبها، يتبعني بول، ونحن نرفع عقيرتنا بصيحات السعادة.

< > <

كانت هناك عربة نقل صغيرة تقف، على المصطبة، فيما بين شجرة التين الضخمة والبيت، وكان حصانها يمضغان الشعير من أكياس مدلاة على عارضيهما.

ووجدنا العم جول، مشمراكمي قميصه، وقد فرغ من إنزال عفشه من العربة، أي أنه فرغ من قلب العفش من على ظهر العربة، إلى ظهر الحمال.

وكانت خالتي روز جالسة في مقعد من جريد الصفصاف على المصطبة، تلقم الرضاعة لابن العم بيير، الذي راح يحرك أصابع قدميه معلنا عن ابتهاجه. وكان العم محمر الوجه، أكثر مرحاً من أي وقت، إذ راح يتحدث بصوت جهوري، وهو يلوك حروف الراء كأنه نغارة خشبية، وأمامه على المنضدة زجاجتان فارغتان وثلاثة فرغ نصفها من النبيذ الأحمر.

- ها أنتم جفتم، يا جوزيف! صباح بفرح مفاجئ، أخيراً وصلتم! كنت بدأت أتساءل ما إذا كنتم غرقتم في الطريق! ونظر أبي إليه طويلاً ببرود:

- على كل حال، قال أبي، كان لديك ما يصبرك على انتظارنا! وأشار بأصبعه على الزجاجات الثلاث.

- يا صديقي العزيز، قال العم، أنت تعلم أن النبيذ غذاء لا غنى عنه للدين

يعتمدون على قوتهم في الشغل، خصوصاً الحمالين. أعني النبذ الطبيعي، وهذا النبذ مصنوع في بيت عائلي بالقرية! فضلاً عن أنك أنت نفسك! عندما تفرغ من إنزال أمتعتك، ستها بارتشاف قدح منه.

— يا عزيزي جول، قال أبي، ربما أشرب مقدار أصبعين، تخية مني لما أنتجته يدك، لكنني لن «أرتشف قدحاً» كما قلت، فقدح من هذا النبذ قد يحتوي على خمس مستيمترات من الكحول الصافي، ولست متعوداً بما فيه الكفاية على هذا الشراب لكي أحتمل جرعة كهذه، تكفي يحقنها تحت الجلد لقتل ثلاثة كلاب كبيرة الحجم. ثم أنظر إلى ما صنعه الكحول بهذا الرجل.

وأشار إلى الحمال، الذي كان يمسّ شاربته المتهدل، ويتراجع مترنحاً ناحية العربة وهو مقطوع النفس. كان يحمل منضدة صغيرة بذراع، ومقعدين بالذراع الأخرى، ويحاول عبور باب البيت بقفزة واحدة. وأثناء محاولته تلك انحشر بين طقطقتين، وتسبب انحشار المنضدة الصغيرة في انبحاس صوت أزيز راعد من أحشائها التي تفسخت.

واستدارت أمي لكي تضحك، وانفجرت خالتي روز في الضحك رغماً عنها. وكان بول في قمة سعادته. أما أنا فلم أضحك، فقد توقعت أن أرى الرجل يقع بين أنقاض هذه الأثاثات في سقطة متشنجة.

وبدلاً من محاولة إعانة هذا البائس (تخيلت كبده)، أصاب الغضب العم جول، الذي احمر تماماً وهو يقول: يا لجهلك... تبا لك، يا لجهلك... أنت ترى بوضوح أن هذا الباب أضيق كثيراً من أن...

— أنا لن أرد عليك، أفاق الحمال، فلست أنا الذي صنع الباب.

— إنه على حق، قال أبي، فهو لم يصنع الباب، ولم يصنع نفسه... ولأن كلاهما لا يتماشى مع الآخر، فلا يوجد سبب للإصرار. ثم إنك قد أنزلت

أمتعتك، وأنا لا أحتاج إليه لإنزال أمتعتي. فهو مرهق بالتأكيد، وبما أن يومه قد انتهى، من الأفضل أن تتركه يعود للمدينة.

- هاك من يقول الحق، أعلن الحمال. الساعة الآن تخطت الخامسة. وأنا عندي عائلة. وعندي فتى، فضلاً عن أن ورائي أشغالاً. أما إذا استغريتم من أن يكون عندي فتى، يمكن إذا شئتم أن أريكم إياه.

- أنت واحد سكير وأبله، قال العم جول.

وتحوّل المفتوق إلى التهديد :

- لا أدري ما الذي يحوشني عن تكسير رأسك .

ونهضت أمي وخالتي، مفزوعتين، وتدخل أبي فيما بين العم جول والسكير، لكن هنا دفعه، وهو يتقدم ناحية العم جول، ويرد :

- لا أدري ماذا يحوشني !

واختبأ بول، وكان شاحباً تماماً، خلف جذع التينة، ورحت أنا أبحث بعيني عن حجر مدبب، في حين علا صوت !

- حاول أن تتجراً على هذا، وسترى الذي يمنعك !

كان الصوت صوت فرانسوا، الذي تقدم، بهدوء شديد، ممسكاً في قبضته بالدنجل، أي نبوت الخشب الصلد الذي يستند إليه عريش العربة.

واستدار الحمال ناحيته، بحق وهو يصرخ :

- بماذا ؟ بماذا ؟

- بهذا، بهذا ! أجب فرانسوا .

- هذا ثقيل ! قال الحمال .

- ثقيل جداً، قال فرانسوا الذي وازن الدججل بيده بطريقة الخبير، ثم التفت ناحية العم جول قائلاً :

- هل دفعت له ؟

- ليس بعد، قال العم جول، إن له عندي سبعة فرنكات ونصفاً

- ادفع له، قال فرانسوا .

وأعطى العم جول للسكير ثلاث قطع فضية .

- وحق المشروب، قال الحمال .

- لقد شريت بما يكفي، وصدقتني هذا لن يفيدك .

- أنتم عصاة أوساخ، قال الحمال .

- هيا غور، قال فرانسوا، اركب عربتك. وسأساعدك على الدوران.

ونظر إليه بطريقة جعلت السكير يتلطف فجأة :

- أنت صديق، قال له، وتفهم معنى الحياة. أما هؤلاء البورجوازيون، فياللعجب لهم ! أنتخيل أنني ربما تكون أمعائي قد انفذرت بسبب منظدة السرير اللعينة هذه، وأنه يرفض أن يعطيني حق المشروب ! ..على العموم الأمر لن يمر هكذا، وسوف أجعلهم يتكبدون أكثر من البقشيش !

وأمسك بأزمة الخيل، بينما كان فرانسوا يلوي أعناق الحصانين، اللذين أمسكهما بقرة من عنانيهما. إلى أن استويا تماماً على الطريق، في اتجاه العودة، عندها توجه إلى عربته هو، فأخذ سوطه، وكان الحمال يلوح لنا بقبضته، ناطقاً بالتهديدات المبهمة، حين صرخ فرانسوا صرخات متوحشة، وهو يسوط الحيوانات بكل قوة ذراعه، وطارت العربة في سحابة من الغبار، والطقطقات، واللعنات، وتوغلت في الماضي.

هكذا بدأت أجمل أيام حياتي، كان هذا البيت يطلق عليه اسم «الحصن الجديد»، لكنه كان قد مضى وقت طويل عليه حين كان جديداً. فقد كان المكان في الأصل مزرعة قديمة خرية، أصلحها منذ ثلاثين عاماً رجلاً من المدينة، كان يتاجر في قماش الخيام، والمشايات، والمكانس. وتعاقد أبي وعمي معه على دفع إيجار سنوي قدره ثمانون فرنكاً (أي أربعة فرنكات ذهبية من فرنكات الملك لويس). وهو الإيجار الذي رأت زوجتاهما أنه مغالى فيه. لكن هذا البيت كان له مظهر الفيلا، وكان به «مخزون ماء»، أي أن التاجر الجريء للمقشات كان قد بنى خزاناً كبيراً للمياه على سطحه، وهو خزان له نفس مساحة ونفس علو البيت تقريباً، فكان يكفي أن تفتح صنبوراً نحاسياً، مركباً فوق حوض غسيل الصحن، لكي ترى تدفق الماء الصافي البارد...

كان هذا الأمر فخفخة غير عادية، ولم أفهم إلا فيما بعد معجزة هذا الصنبور. فقد كانت المنطقة بأسرها، من أخصص نافورة قريتها، حتى أعالي شجوماتها، منطقة للعطش، فلمسافة عشرين كيلومتراً، لم يكن يصادفك فيها إلا دزينة من الآبار (معظمها يجف بدءاً من شهر مايو) وأربعة أو خمسة «ينابيع»، واقعة في أعماق مغارات صغيرة، كل منها عبارة عن ثلم في صخرة، يدمع في صمت فوق مايشبه اللحية المزينة.

لذا، فعندما كانت تجيء إلينا إحدى الفلاحات، لتبيعنا البيض أو الحمص، وتدخل إلى المطبخ، كانت تطيل النظر، وهي تهز رأسها، إلى هذا الإختراع المتألي.

كانت توجد بالدور الأرضي أيضاً قاعة طعام كبيرة (حوالي خمسة أمتار في أربعة) كانت تزينها على نحو فخيم مدفأة صغيرة من الرخام الحقيقي. كما كان يوجد بالدور الأرضي أيضاً سلم، متكوّن، يفضي إلى أربع غرف في الدور الأول، مصممة نوافذها بطريقة حديثة، فكان فيما بين شيشها وزجاجها أطر

قابلة للفتح والغلق مكسوة بشبكات من نسيج معدني خفيف، لئمنع تسلل حشرات الليل.

كان البيت مضاء بمصابيح البترول، وبعض الشموع للطوارئ. ولأننا كنا نتناول وجباتنا في الخارج، على المصطبة، تحت التينة، كنا نستضيء أيضا بمصباح من ماركة العاصفة.

هذا المصباح العجيب ! أخرجه أبي ذات مساء من صندوق الكرتون، وعمره بالبترول، وأشعل الفتيل، فانبعثت منه شعلة مستوية، لها شكل اللوزة، غطاها بزجاج مصباح عادي. ثم وضع المصباح بأكمله داخل زجاجة بيضاوية، تحميها شبكة معدنية، مركبة فوق وعاء معدني، كان هذا الوعاء صياداً للريح. فقد كان مثقوباً بثقوب تستقبل النسمات الليلية، وتمررها داخلها ثم تدفعها، بعد أن تهدأ، نحو الشعلة المستقرة التي تلتهمها... وعندما رأيت ذلك المصباح، معلقا على غصن التينة، مشتتلاً، لامعاً، ساكناً، كمصابيح الكنيسة، نسيت حساء البجن الذي كنت أتناوله، وقررت أن أكرس حياتي للعلوم... فهذه اللوزة المتلاعبة ظلت تضئ لي طفولتي إلى اليوم، وكانت دهشتي بها أكبر من دهشتي بمنارة الفنار التي زرتها بعد ذلك بعشرة أعوام.

فعلى غرار الفنار، الذي يغوي السُمان والزقزاق، كان هذا المصباح يجذب كل حشرات الليل. فما إن نعلقه على غصنه، حتى يحيط به سرب من الفراشات السمينة، التي كانت ظلالها تتراقص على مفرش الطاولة، وتحترق بفعل الغرام المستحيل، وتسقط مشوية في صحنونا.

كانت نحوم حولنا كذلك الزناوير الكبيرة، المسماة بالنطاطة التي كنا نهشها بالفوط، ونقلب الأكواب دائماً، وأحياناً نقلب الدُّوق، وحشرات قرن الأيل والقرنبيات، التي تجيء في الليل كما لو أن قاذفاً يقذف بها من عمقه، لتحاول إغواء المصباح قبل أن تعوم في سلطانية الحساء. وحشرات قرن الأيل

هذه سوداء لمساء، لها في خطمها كَلَابَة مستقيمة وكبيرة، ذات فرعين ناتحين من ضلع مزخرف، وهذه الأعجوبة النافعة، بسبب من عدم ليونة مفصلها، لم تعد عليها بشيء، لكنها كانت ملائمة تماماً لأن نربطها منها بلبام من الخيط، لتجر به بغير عناء، مكواة ثقيلة من الحديد، فوق مفرش المشمع.

لم تكن الحديقة إلا روضة عجوزة مهمة، محاطة بسياج من السلك المستعمل في تسييج أفنان الدجاج، تأكل معظمه مع مرور الزمن. فكانت تسميتها بالحديقة مطابقة مع تسمية البيت بالفيللا.

الأكثر من ذلك أن عمّي أطلق تسمية «الخادمة» على فلاحه ضالة، كانت تأتينا بعد الظهر لغسل الصحون، وأحياناً الغسيل، الأمر الذي كان يعد فرصة لها لغسل يديها ؟ فانتسبنا نحن بهذا الشكل إلى الطبقة العليا، طبقة البورجوازيين المتميزين. وكانت تترامى أمام الحديقة، حقول القمح والشعير، فقيرة الزرع، المحاطة بأشجار الزيتون المعمرة.

أما ما وراء البيت، فكان مرتعاً لغابات الصنوبر التي تشكل جزراً داكنة وسط الأراضي البور المترامية، التي كانت تمتد في كل الجهات والسفوح، حتى سلسلة جبال سان فكتوار.

وكان «الحصن الجديد» آخر عمارة، على عتبة الصحراء، التي كان يمكن للمرء أن يسير فيها ثلاثين كيلومتراً بدون أن يصادف إلا الخرائب الواطئة لثلاث أو أربع من مزارع القرون الوسطى، وبعض الرعاة الشاردين.

كنا نسقط في النوم مبكرين، مستنفذين من اللعب طوال اليوم، وكان الأمر يتطلب حمل بول الصغير الذي يصير رخواً كمروسة القماش، فكنت ألتقطه في تمام اللحظة التي يقع فيها من على كرسيه، وهو يقبض بيد متشنجة على فتاحة نصف مقروضة، أو على نصف أصبع من الموز.

وحين كنت أناهب للنوم، وأنا نصف غائب عن الوعي، كنت كل ليلة أقرر أن أستيقظ في الفجر، حتى لا أخسر دقيقة من اليوم التالي الساحر. لكنني كنت لا أفتح عيني إلا في حوالي الساعة صباحاً، حائقاً متدمراً كل مرة كما لو أنني تأخرت على القطار.

عندها، كنت أنادى على بول، الذي يشرع في التلطمع على نحو يشير الشفقة. وهو ينكمش ناحية الحائط، لكنه لم يكن بمقدوره الصمود أمام الشباك المفتوح، الذي يأتي مرة واحدة بالضوء، وهو يخطب بمصراعيه، وبصرير صراخير الحقل ورائحة الأرض البور لتغمر دفعة واحدة فضاء الغرفة الواسعة.

وكنا ننزل عاريين، وملابسنا في أيدينا.

كان أبي قد ركب بحفنية المطبخ خرطوماً من الكاوتشوك يصل حتى خارج البيت إلى المصطبة، وكان لهذا الخرطوم بزيوز نحاسي. فكنت أمسك به وأرش الماء على بول، الذي كان يرشه عليّ بدوره، وكان هذا إختراعاً عبiquياً من أبي، جعل من عملية التشطيف الصباحية الكريهة لعبة محببة، نظل نلعب بها حتى تصبح أمي علينا من النافذة: «كفي! فلو فرغ الخزان، سنضطر للرحيل!».

وفي أعقاب هذا التهديد المخيف، كانت تغلق الصنبور بإحكام.

بعد ذلك، كنا نبتلع شطائرنا بسرعة مع القهوة بالحليب، وتبدأ المغامرة الكبرى. كان ممنوعاً علينا الخروج من الحديقة، لكن أحداً لم يراقبنا، فأمي تعتقد أن السور من الصعب عبوره، وكانت خالتي مستعبدة تماماً لابن العم بيير. وكان أبي يذهب غالباً إلى القرية لأداء «بعض المهام»، أو إلى التل ليجمع الأعشاب؛ أما العم جول، فقد كان يقضي بالمدينة ثلاثة أيام كل أسبوع، لأنه لم يكن قد حصل إلا على عشرين يوماً إجازة قسمها على مدى الشهرين.

هكذا تركنا طلقاء غالب الوقت، وحدث مرات أن تسللنا وذهبنا حتى الأحرش القريبة. لكن هذه المحاولات الكشفية، كانت تنتهي في معظم الحالات

بالهروب المضطرب إلى المنزل، برغم إرهاف أذني، والسكين التي أحملها في يدي، خوفاً من لقاء مباغت بثعبان كبير، أو أسد، أو دب من دبية المغارات.

كانت ألعابنا تبدأ بصيد صراصير الحقل، التي كانت تصرصر وهي تمص رحيق اللوز، وكانت تفرّ منا في أول الأمر، لكننا تمكنا سريعاً من التدرب على مباغتتها والإمساك بها، الأمر الذي كان يجعلنا نرجع إلى البيت محاطين بهالة موسيقية، فقد كنّا نحمل منها الدزينات التي كانت تنشش في جيوبنا وتقفز. كما كنّا نصطاد الفراشات، وحشرة «الصمل»، وهي نوع من أبي دقيق لها ذيلان وأجنحة كبيرة بيضاء بأطراف زرقاء، كانت تترك على أصابعي غباراً ملتصقا بلون فضي.

ولعدة أيام كنا نلعب لعبة أطلقنا عليها لعبة إلقاء المسيحين للأسود، فكانا نلقي بحفنات من الجرادات الصغيرة في الشباك المرصعة للعناكب القطيفية السوداء، المضلعة بالخطوط الصفراء، فكانت تلف حولها خيوطها في ثوان معدودة، وتنفذ بمهارة خراطيمها في رؤوس الضحايا، وتمتصها على مهل، بلذة نهمة. وكانت هذه الألعاب الصببانية يتخللها تعاطينا لصمغ شجر اللوز، وهو الصمغ العسلي اللون، المسكّر كقطع الحلوى الناعمة اللزجة، الذي كان العم جول ينصحن بشدة أن نتجنبه، فكان يدّعي أن هذا الصمغ «سينتهي لأن يسد مصاريننا».

أما أبي المشغول بتقدمنا في الدراسة، فقد نصحن بالتخلي عن الألعاب عديمة القيمة، وأن نراقب بدقة الحشرات، وأن نبدأ بتأمل سلوك النمل الذي كان يجد فيه نموذجاً لسلوك المواطن الصالح.

وكان هذا ما جعلنا نُخلّع في اليوم التالي كمية كبيرة من الأعشاب والباوركو حول المدخل الرئيسي لعش نمل كبير. وعندما صار المدخل ظاهراً تماماً في خط يمتد لمترين، نجحت في التسلل إلى المطبخ، أثناء قيام أبي

وخالتي بقطف اللوز من خلف المنزل ؛ وسرقت كوباً مليعاً بالبترول، وبعض
أعواد الكبريت.

كان النمل، الذي لم يشتبه في شيء، يروح ويجيء في خططين متوازيين،
كالبحارة على سطح الباخرة.

تأكدت أولاً من أن أحداً لا يراني، ثم صببت البترول بهدوء في الفتحة
الرئيسية للعش، فأهاجت حالة من الفوضى مقدمة الطابور، وخرجت العشرات
من النمل إلى خارج العش، تجري هنا وهناك على غير هدي، وأخذت
النملات ذات الرؤوس الكبيرة تفتح وتغلق أفكاكها القوية، كأنها تبحث عن
العدو غير المرئي. عندئذ أدخلت في فتحة العش قطعة من الورق، وطلب بول
أن تكون له مائدة إشعال النار، وهو ما قام به على أفضل وجه، فارتفعت شعلة
حمراء ذات دخان. وبدأت دراساتها.

لسوء حظها، احترقت النملات بسهولة شديدة. فقد صبعقتها النار في
الحال، واختفت في لمحات شرر. وكانت هذه اللعبة النارية الصغيرة ممتعة لكنها
كانت قصيرة، زد على ذلك، أنه بعد فناء النمل الذي كان خارج العش،
انتظرنا بلا جدوى خروج الجحافل القوية تحت أرضية، والإنفجار الصاخب
للمملكة، وهو الأمر الذي كنت أتوقعه، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، ولم يبق
أمام أعيننا سوى حفرة صغيرة، اسودت بفعل النار، وكانت تعسة وغريبة كأنها
فوهة بركان خامد.

مع ذلك، تعزينا سريعاً عن هذا الإخفاق بأسر ثلاث «سرعوفات» كبيرة، أي
ثلاث حشرات خضراوات، من نوع «الراهبة»، كن تنزهن على الأغصان
الخضراء لشجرة من أشجار «رعي الحمام» البرية العطرية، وكان ذلك موضوعاً
مناسباً للبحث.

كان أبي قد قال لنا (بنوع من السرور العَلَماني) إن حشرة «السرعوفة»

هذه، والتي تدعى «الراهبة»، هي حشرة متوحشة لا قلب لها، بما يمكن معه اعتباره «نمر الحشرات»، وإن دراسة سلوكها أمر في غاية الأهمية.

لذا قررت أن أدرسها. فوضعت الحشريتين الأكبر فيما يبينهن في مواجهة بعضهما ومخالبهما للأمام، لكي تنشب فيما بينهما معركة.

واستطعنا بهذه الطريقة التقدم في دراستنا نحو استنتاج مؤداه أن هذه الحشرات الخلبية لديها القدرة على الحياة بلا مخالب، ثم بلا أرجل، بل حتى بنصف رأس... فبعد مضي ربع ساعة على هذه التسلية الطفولية العابثة، كانت إحدى بطلتينا قد تحولت إلى ما لا يزيد على نصف حشرة، بعد أن افترست صدر ورأس غريمته، وظلت تهاجم بخمول. بنصفها الذي كان يتحرك بعصبية. وأسرع بول، الذي كان طيب القلب. وسرق أنبوبة الصمغ (الذي كان يلصق جميع المواد بما فيها الحديد) وحاول أن يلحم هذين النصفين معا، لكي نرم بهما حشرة واحدة، نطلقها حرة باحترامها، لكنه لم يتمكن من النجاح في هذه العملية، لأن النصف العصبي نجح في الفرار.

كان النمر الثالث قد تبقى معنا، في برطمان، وقررت أن أقيم مواجهة بينه وبين النمل، ومكنتنا هذه الفكرة السعيدة من الاستمتاع بعرض ظريف.

قلبت البرطمان على جانبه دفعة واحدة. موجها فتحتة صوب المدخل الرئيسي لعش نمل في معمران نشاطه، واعتدلت الحشرة النمر على قوائها الخلفية واقفة، ولكن لأنها كانت أطول من البرطمان. الذي كان صغيراً، فقد أطلت برأسها تنظر في كل ناحية بفضول السائحين. غير أن مجموعة من النمل خرجت من النفق وهاجمتها بالصعود على قوائمها، مما جعلها تفقد هدوءها، وتبدأ في الترقص، وهي تطوح بمخالبها يمنة ويسرة، وكانت تشد في كل حركة كتلة من النمل، تحمّلها إلى فكّيها، وتسقطها مقطعة أنصافاً.

ولأن كثافة زجاج البرطمان شوهت من جمال العرض، ولأن الوضع

المنعبد للنمر ضايق تحركاته، اعتقدت أن من واجبي أن أزيح البرطمان. وسقطت حشرة الراهبة على الأرض، متخذة وضعها الطبيعي، بمخالبها الستة المعقوفة وقوائمها الستة. لكن كل رجل من أرجلها كانت قد تعلق بها أربعة نملا ت نشبن فيها أفكاكهن القابضة عليها، وهن متشبثات في الوقت ذاته بحصباء الأرض. وعلى هذا النحو شل النمل حركة النمر الذي لم يتمكن من أن يفعل ما فعله جاليفر مع الأقزام في وضع مشابه.

غير أن مخالبه، التي ظلت طليقة، راحت تهاجم بالتناوب كل قائمة من قوائمها، وتصرع في جيش الناهشين هذا. ولكن قبل أن تسقط في كل مرة النملا ت المقطعة من بين فكّيها، كانت نملا ت أخرى تأخذ مكانها، وتبدأ من جديد.

كنت أتساءل كيف يمكن تطوير هذا المشهد، الذي بدا لي مستقرا - أعني ثابتاً على دورة لا تتغير - حتى تلاحظ لي أن ردود فعل القوائم المعرضة للهجوم لم تعد سريعة ولا متعاقبة. واستنتجت أن «الراهبة» قد بدأت شجاعتها تخونها بسبب عدم كفاءة تكتيكها وأنها ستغير هذا التكتيك بالقطع. وبالفعل، بعد مضي أربع دقائق، توقفت بالمرّة هجماتها الجانبية. وتخلّى النمل في أعقاب ذلك عن رقبته، وصدرها، وظهرها، وبقيت هي واقفة، جامدة، بمخالب راكمة، وجذع شبه مستقيم على القوائم الستة التي كانت ترتجف بوهن.

قال بول : «إنها تفكر» .

وبدا لي أن هذا التفكير قد طال نوعاً ما. وجعلني اختفاء النمل أقول لنفسني : أنا ما بغير عشاء، وأعرف سر المأساة.

أسفل الذيل المنقط للنمر الساكن، قام النمل بتوسيع حفرة الأرض الطبيعية، فكان هناك خط من النمل يدخل، وآخر يخرج، كما لو في مدخل أحد المحلات الكبيرة، عشية عيد الميلاد. كانت كل نملة تحمل غنيمتها.

وهؤلاء الحمالون المثابرون ينقلون أحشاء الراهبة.

كان النمر التعيس واقفاً جامداً، كما لو أنه يصغي، بنوع من التأمل والاستبطان لما يحدث داخل أحشائه، ولم يكن له من الوسائل، بفعل تكوينه الخلقي، أو مقدرة الصوتية، للتعبير عن التعذيب الذي يتعرض له، أو عن بأسه، كما لم يكن سقوطه على الأرض استعاضياً. ولم نفهم أنه مات إلا في اللحظة التي تخلت فيها النملات المتشبهة بقوائمه عن تشبهها وبدأت في تفسيح قشرتها الرهيفة التي كانت تغلفها. ونشر النمل الرقبة، وقطع الصدر في شرائح منتظمة، وفصل الأرجل، وفصص أيضاً المخالب الرهيبة، بنفس الطريقة التي يستعملها الأطباء مع سرطان البحر. وتم نقل كل ذلك إلى باطن الأرض، وتم تخزينه في عمق محل، بترتيب جديد.

لم يكن قد تبقى على الأرض سوى أعمدة الأجنحة الجميلة الخضراء، التي طارت زمنا فوق أدغال العشب، وأرعبت الفرائس والأعداء. لكنها كانت محتقرة من الحمالين، الذين أقروا في عاسة بعدم صلاحيتها للأكل.

على هذا النحو انتهت «دراستنا» حول سلوك حشرة الراهبة، وحول «مثابة» النمل «المجتهد».

- الحشرة المسكينة ! قال لي بول. لقد قُدر لها أن تعاني الخوف الشديد.

- هذا جزاؤها، قلت، فهي تأكل الجراد حياً، وكذلك الصراصير، بل حتى الفراشات. قال لك أبونا : إنها نمر. وأنا لا يعنيني خوف النمر.

< > <

وبدأت دراسة علم الحشرات تضجرجنا، عندما تكشف لنا ميلنا الحقيقي.

فغقب الغذاء، عندما كانت الشمس الحارقة تقذف بلهبها العشب الجاف، لترغمنا على «القبلولة» في ظل التينة، مدة ساعة، فوق المقاعد التي تطوى والمسماة «بعمارة المحيطات»، التي كان من العسير فتحها ونصبها في وضع سليم، والتي تعض أثناء ذلك على الأصابع بوحشية، وتتهاوى أحياناً تحت الناعس المصعوق.

كانت هذه الراحة بالنسبة لنا بمثابة التعذيب، لكن أبي، المعلم العظيم، الذي يعرف كيف يزين ما هو قبيح، جعلنا نستسلم لهذه الراحة بإعطائه لنا بعض أجزاء من مؤلفات فيمور كوبر وجوستاف أيمار لنقرأ فيها.

كان الصغير بول يفتح عينيه، ويفرج شفتيه، ويستمع لي وأنا أقرأ بصوت عالٍ قصة «الموهيكان الأخير». وقد أيقظت فينا هذه القصة الإحساس الذي تأكد لنا مع القصة التي تلتها، وهي قصة «قصّاص الأثر»: وهو أننا نحن أنفسنا الهنود الحمر، أبناء الغابة، وصائدوا الثيران البرية، وقتلة الدببة المتوحشة، وشانقو الثعابين الكبيرة، وسالخوراء رؤوس الوجوه البيضاء الباهتة اللون.

وقبلت أمي -بغير أن تسأل لماذا- أن تخطط لنا من مفروش قديم غطاء مثقبا، جعلنا منه «كوخنا» في الركن الأكثر برية من الحديقة.

كان لدي قوسٌ حقيقي، جاءني مباشرة من العالم الجديد مروراً بمحل تاجر العاديات. فكنت أصنع السهام من البوص، وأختفي في الأكم، وأطلقها بوحشية على باب كوخ الغرف المنفصلة الواقع في طرف المرمر. وكنت أسرق السكّين «الحادة» من درج المطبخ، وأمسك بها من طرفها المدب، بين إبهامي والسبابة (على طريقة هنود الكومانش) وأقذف بها بكل قواي على جذع

صنوبرة، بينما يصفر بول صغيراً حاداً كصغير السلاح القاطع.

بهذا الشكل فهمنا سريعاً أن الحرب هي اللعبة الوحيدة المثيرة بالفعل، وأنا ليس بإمكاننا لكي نلعبها أن ننتمي لقبيلة واحدة. لذا ظللت أنا كومانش، وأصبح هو باوني. الأمر الذي مكّنتني من سلخ فروة رأسه عدة مرات في اليوم. وكان هو بالمقابل. عند الغروب، يقتلني بيلطة من الكرتون، ويفر في الحال مطلقاً ساقيه للريح، لمهارتي في تمثيل الاحتضار.

كانت تيجان الريش قد صنعتها لنا خالتي مع أمي، وكنا نطلي وجوهنا بطلاء الحرب بواسطة الصمغ، والمربي، وبودرة الطباشير الملون، مما أضفى واقعية ملائمة على هذه الحياة الهندية. وفي بعض الأحيان، كانت القبيلتان المتعاديتان تصرفان النظر عن الحرب فيما بينهما، وتتحدان في صراع ضد أصحاب الوجوه الباهتة، من البانكي القساء القادمين من الشمال. فكنا نتعقب الآثار المتخيلة، ونحن نسير منحنيين على مرتفعات العشب، مصغين لأصوات التقصيف، ومتتبعين العلامات غير الواضحة، فكنت أنفحص بفرع خيطاً من الصوف معلقاً على العرف الذهبي لشجرة من أشجار الزيتون، وعندما كانت الآثار تزدوج كنا ننفصل ليتعقب كل منا جزءاً منها في صمت... ولكي نحافظ على الاتصال، من وقت لآخر، كنت أطلق صرخة طائر الشحرور المحاكي - كانت صرختي شديدة التقليد لصرخته عندما تهجره أنثاه - وكان بول يجيبني بالعواء المبحوح للذئب الصغير، وكان يقلده تماماً هو الآخر، إلا أنه - وهذا خطأ بالذئب - كان يقلد صوت كلب الخبازة، الأجر، الذي كان يهيشنا أحياناً من سراويلنا. ولقد حدث عدة مرات؛ أن تعقب خطانا تحالف من الصيادين، حملة «البنادق الطويلة». عندها، كنا نسير طويلاً متراجعين للخلف، لكي نترك له آثاراً معكوسة.

بعد ذلك، وعند فتحة ماء كنت أوقف بول مشيراً له بحركة من يدي،
وأتمدّد في صمت مطبق، مصغياً بأذني للأرض... وكنت أستمع بقلق
حقيقي، لأصوات الذين يلاحقوننا، في قلب الغابة البعيدة، لأنني كنت أسمع
أصوات خفق قلبي، وكنا نستكمل اللعبة عند عودتنا للبيت.

كنا نفرّد الغطاء على التينة. وكان أبي يتمدّد في مقعد، يقرأ في نصف
جريدة، لأن عمي يقرأ نصفها الآخر. وكنا نقوم أنفسنا، بوقار واعتداد، كما لو
أننا زعماء هنود مدعوون ضيوفاً عليهم، فكنت أبهر: «أوغ» !

- أوغ !

- هل يرغب الزعماء البيض العظام في استقبال إخوتهم الحمر في
كهفهم الحجري ؟

- أهلاً بإخوتنا الحمر، يقول أبي، الذين لا شك عانوا من طول الطريق،
لأن أقدامهم تبدو مغبرة.

- لقد جئنا من عند النهر البعيد، وتكبّدنا مسيرة ثلاث ليال قمرية !

- كل أطفال الإله مانيتو العظيم لإخوة، ولكن لكي يشاركنا الزعماء ثريدنا !
نحن نطلب منهم فقط احترام التقاليد المقدسة للبيض، أي أن يذهبوا أولاً يغلسوا
أيديهم ! .

وفي المساء، أمام الطاولة، وتحت مصباح «العاصفة» المحاط بهالات
الهاموش، كنت أستمع إلى المحادثات التي تدور بين عمي وأبي، وأنا أهرق قلمي
الثقيبتين من التعب، أمام أُمِّي الجميلة.

كانوا يتناقشون معظم الوقت في السياسة. فيعقد عمي مقارنة غير ضرورية
بين السيد فاليرير والملك لويس الرابع عشر. ويرد أبي متحدئاً بطريقة قادة
المظاهرات، وهو يصف كاردينالاً أصبح جسده شبيهاً بعلامة الاستفهام، بعدما
حبسه الملك في قفص من الحديد.

وكان العم، أحياناً، يهاجم الناس المدعويين «بالراديكاليين». وكان يوجد في
تلك الحقبة رجل يدعى السيد «كومبل» وكان راديكالياً، وكان من الصعب
عليه تكوين رأي. فكان أبي يقول إن هذا الراديكالي رجل شديد الأمانة، بينما
كان عمي يدعوه «بخلاصة النذالة» قائلاً: إنه يصمم بالعشرة على ذلك.
مضيفاً أن هذه الـ «كومبل» زعيم عصابة من المخربين، يدعون باخفيل الماسوني.

وكان أبي يعقب على ذلك بالحديث عن عصابة أخرى، تدعى بـ
«اليسوعيين» أعضاؤها نماذج مرعبة من تارتوف مولير، يقومون بحفر السرايب
تحت أقدام كل الناس. ساعتها، كان العم جول يقدح شرراً، ويطلب بإعادة
«المليار فرنك الذي نهب من الهيئات الدينية». وكان أبي، على إفلاسه، يجيب
بحزم: «يستحيل! يستحيل أن نعيد لكم مثل هذه الثروة، التي انتزعتوها من
على أسيرة الموتى والمختضرين بالإرهاب!»

وعندما كانت المناقشة تصل إلى هذا الحد، كانت أُمِّي وخالتي تتدخلان
بأن نظرحا عليهما أسئلة غير ملحة حول البراغيث بمنطقة روسيُون، أو حول
التعيين غير المناسب لأحد المعلمين بالمدرسة العليا، وتلطف المناقشة من حداثها
دفعاً واحدة. لكن ما كانوا يقولونه في هذه الأمور، لم يكن يثير اهتمامي. كان

ما أسمعها، وما أترقبه، هو الكلمات، فقد كنت أهوى المفردات، وكنت أجمعها، سراً، في كراسة صغيرة، كما يجمع الآخرون طوابع البريد.

كنت أحب الكلمات التي على شاكلة قنبلة، دخان، فظ، منخور، وقبل كل شيء كلمة مانيفللا (ذراع الآلة). وكنت غالباً ما أردد هذه الكلمات لنفسى، عندما أكون وحدي، لمتعة أن أستمع إليها.

وكان في حديث العم جول، كلمات جديدة على سمعي للغاية، ولطيفة مثل، مدمشق (أي مرصع)، منتقى، أو الكلمات المعظمة مثل أسقفى،

ومفوض. فعندما كنت ألح أيا من هذه السفائن الفخمة في نهر حديثه، كنت أرفع يدي وأسأل عن معناها، وهو الأمر الذي كان يجيب عليه بسرور.

وهكذا فهمت ، للمرة الأولى أن الكلمات ذات الجرس النبيل، تتضمن دائماً تعابير جميلة.

وشجع أبني وعمي هذا الميل المفرط عندي، فقد بدا لهما بشرى طيبة، إلى أن حدث ذات يوم، ويدون مناسبة من حديث (وكان ذلك مفاجأة لي). أن أعطوني كلمة لكي أكتبها في (نوتة البقال) التي أحتفظ بها في جيبى هذه، وكانت الكلمة هي كلمة لادستوري التي أمليها عليّ وهم يعرفونني أنها أطول كلمة في اللغة الفرنسية.

وكتبتها، بمعاناة شديدة، على صفحة من الكراس، وكنت أقرأها في سريري كل مساء، ولم أتمكن إلا عبر عدة أيام من حفظ هذه الكلمة الخفيفة، وقررت في نفسى أن أستغلها، لو أنه حدث لي يوماً، بمصادفة ما، في نهاية العمر، أن أرغموني على العودة للمدرسة، بأن أقول : هذا أمر لا دستوري.

نحو العاشر من أغسطس، توقفت الإجازة لبعد ظهر كامل، بسبب قصف رعد وبرق، ظل يتوالد كما لو أنه الذعر نفسه، الأمر الذي جعلني أتعرض لحصاة إملاء. كان العم جول جالساً على مقعد مريح بالقرب من الباب الزجاجي، يقرأ جريدة. وكان بول يتقلب في ركن ظليل، يلعب نفسه الدومينو، برص القطع جوار بعضها كيفما اتفق، بعد نوع من التفكير ومناجاة النفس. وكانت أمي تخنيك إلى جوار النافذة، حين شرع أبي، الجالس أمام الطاولة يشحن سن مدية على حجر أسود، في الإملاء علي بصوت عال، وهو يعيد كل جملة لمرة أو ثلاثة، في ذلك النص الغامض.

كان النص عبارة عن خطبة وعظ للفيلسوف الكاهن لامينيه، يحكي فيها مغامرة عنقود عنب.

كان رب البيت قد قطع العنقود من كرمته، لكنه لم يأكله! وعاد به للبيت، ليعطيه لربة المنزل. وهذه بدورها، أعطته في الخفاء، بتأثر شديد، لابنها الوحيد، الذي، بغير أن يقول شيئاً لأحد، أعطاه لأخته. لكن هذه الأخيرة لم تلمس العنقود هي الأخرى، فقد انتظرت الأب، الذي وجد عند عودته العنقود في صحته. فضم كل العائلة بين ذراعيه، وهو يرفع عينيه للسماء.

انتهت رحلة العنقود على هذا النحو. وتساءلت ما إذا كانوا قد أكلوه، حين أرخى العم بول جريدته، وقال لي بصوت أجش :

- هذه الصفحة عليك أن تحفظها عن ظهر قلب.

وأصابني السخط لهذا العرض العدواني بالعمل الإضافي، فسألت :

- لماذا ؟

- عجباً ! قال العم. ألم تؤثر فيك هذه المشاعر لدى هؤلاء الفلاحين

البسطاء ؟

وراقبت من وراء النافذة. المطر المتساقط، الذي اسودت بتأثيره أغصان شجرة التين، وعضضت على طرف الريشة. وألح العم :

- لماذا قام هذا العقنود بدورة كاملة على العائلة فرداً فرداً ؟

ونظر إليّ بعينيه المليحتين بالطيبة، وأردت أن أسعده، فركزت كل اهتمامي على هذه المشكلة، وفي لمعة خاطفة، وضع أمامي السبب، فصحت :

- لأن نسبة الأملاح الكبريتية به عالية !

وثبت العم جول عينيه عليّ، وضغط على أسنانه، واحمر وجهه، كان يريد الكلام لكن السخط قطع أنفاسه. وتوقفت الكلمات في حلقه، فقد انفلتت من حنجرتة ثلاثة أو أربعة مقاطع حلقومية، لم تكن تعبر، رغمًا عنه، عن معنى محدد. عندها، رفع ذراعيه مشوحاً بهما لأعلى، ونهض عن مقعده، وهو يقول صارخاً :

- هكذا ! وكررها ثلاث مرات...

وفتحت صرخات التعجب هذه حنجرتة، فتمكن في النهاية من الصياح !

- هذه هي النتيجة التي نحصل عليها من المدارس الإلحادية فالأفعال العظيمة الناتجة عن المحبة ينسبها للخشية من الأملاح الكبريتية ! هذا الطفل، الذي ليس وحشاً، أجاب بعفوية إجابة متوحشة. فانتظر وقدر، يا عزيزي جوزيف، مدى ضخامة مسؤوليتك المربعة.

- ولكن، يا جول، قالت أمي، أحسب أنه قال ذلك للضحك !

- للضحك ؟ صاح العم. هذا ألعن ... أنا أفضل الاعتقاد بأنه لم يفهم سؤالي. واستدار ناحيتي.

- إسمعني جيداً. إذا أنت وجدت عنقوداً كبيراً من العنب، عنقوداً جميلاً،

فريداً، هل ستحمّله إلى أمك ؟

- نعم سأفعل ! قلت بجديّة.

- يرافو ! قال العم. هذا كلامٌ نابع من القلب ! ... وتحوّل ناحية أبي،
ليضيف : إنني سعيد بأنّه على الرغم من المادية الشنيعة التي تلقّنها له، وجد في
قلبه ناموس الرب، واحتفظ بالعنقود لأمه !

ووجدته مزهواً بانتصاره، فهرعت لنجدة أبي، وقلت :

- لكنني سأكل نصفه في الطريق.

وحاول العم، غير المسرور، معاودة الحديث، في الوقت الذي صاح فيه أبي
بقوّة: لديه حق ! فلو أن هؤلاء الناس كانت لديهم مثل هذه المشاعر الطيبة،
لكان عليهم أن يؤثروا الآخرين بقلب الخس، ولحم الفراخ العتافي، وأكباد
الأرناب، وأن يكفوا عن التمتع بالملذات الذي صار شيئاً ملازماً لحياتهم، في
الوقت الذي يظل فيه البشر التمساء -الذين بحاجة للغذاء- يتعاركون على
رؤوس البط، وعظم اللحم، ويقايا الكرنب. لقد فهمت بفضله، أن هذه القصة
مصدرها بلاهة دينية، وحقيقة الأمر أن السيد لامينيه الذي تعتد به شخص
منافق، سَقَطَ، مثله مثل كل القساوسة، لكي يضلّل المؤمنين، في تكرار سخيف
للمواعظ.

وعندما وصل الهجوم إلى حد المجابهة هذا، وتأهب العم، الذي انتفش
شاربه، للرد بعنف، أحست الخالة روز، التي كانت تتابع في المطبخ طهو يخنّة
أرنب، بحلول المعركة، فبرزت إلى الباب. ولوحت بسلة خس، وهي تمسك في
يسراها قلنسوة مطر سوداء من قماش مشمع وصاحت بجذل :

- جول ! لقد كف المطر تقريباً ! أسرع إلى الحلزونات.

وبغير أن تمهله ثانية واحدة. وضعت في يده السلة، ومدت القلنسوة حتى

فتحتي أنفه، كما لو أنها كانت تطفئ الحادثة. وكان صعباً عليه وهو مدججٌ بكل هذه المعدات، أن يشرع في المهاترة. لكنه مع ذلك حاول أن يلوك بعض حروف الراء وأن يسمعها لنا :

— بكل صراحة هذا أمر مرير ومرعب... مسكين هذا الصغير...

لكن خالتي التي استدارت ضاحكة، دفعت به للخارج تحت المطر الغزير، ثم أغلقت الباب. وبعت إليه، عبر الزجاج، قبلة، كانت الرقة فيها حقيقية وغير متكلفة. بعد ذلك اعتدلت نحونا فجأة، غاضبة، وقالت :

— جوزيف، كان عليك تجنّب هذا.

ولم يعد العم جول، الذي كان يحب المطر، إلا بعد ساعة، مبتلاً ولكن سعيداً. كان خيط من اللعاب يسيل من سلة الخس، وقد جمع العم جول حمل كتف من الحلزونات، كان أكبرها -الذي كان ضخماً حقاً- يصوب قرنيه عبثاً نحو رأس القلنسوة السوداء.

كان أبي يعزف بالصفارة، وأمي تستمع إليه وهي تمخط في المنديل، بينما كانت الأخت الصغيرة نائمة على كوعيهما، وكنت ألعب دور دومينو مع بول. وغمرنا العم جول بالتهاني على جمعه لهذه الحلزونات، ولم يثر هو موضوع لامينيه.

لكنه في المساء، وعلى العشاء، انتقم انتقاماً متوحشاً.

وضعت أمني على الطاولة يخرة الأرنب، محاطة بهالة من الروائح المشهية. وفي العادة، وبسبب من مجهودي المدرسي، كانت كبد الأرنب تحجز لي، فبحثت عنها بعيني في الصلصة المخملية الناعمة. ورآها العم جول قبلي، فالتقطها بطرف شوكرته، ورفعها إلى ضوء المصباح وراح يتفحصها، ويشمها، ثم قال :

- هذه الكبد مطهوه بطريقة رائعة، إنها سليمة وكاملة، وتوحي بأنها ناعمة وطرية، فهي بالتأكيد قطعة متميزة. ويتوجب عليّ أن أهديها لشخص، إذا لم يكن أحد على الطاولة يتصور أنها مسمومة مثلاً ! وعقب ذلك، انفجر في ضحكة ساخرة، والتهم الكبد، أمام عيني.

{} {} {}

حوالي الخامس عشر من أغسطس، تبين لنا أن أحداثاً عظيمة ستحدث.
فدأت بعد ظهر، وبينما كنت مشغولاً بدق وتد تعليب على رهوة معشوشبة،
جاء بول مهزولاً يزف لي خبراً غريباً :

- العم جول يطبخ !

وأصابتنى الدهشة حتى أنني تركت في التو ما كنت أفعله لكي أذهب
وأستجلي أعجوبة العم جول - الطباخ.

كان واقفاً أمام الموقد، يراقب مقلاة تطشطش، كانت تحتوي أقرصاً لخبنة
بيضاء. تسويها على مهل وهي تصفر خفيفاً في الدهن المغلي. وكانت رائحة
منفرة تملأ المطبخ، فقررت على الفور ألا أأكل اليوم.

- عم جول، ما هذا ؟

- ستعرفه هذا المساء. قال . وبمسكا بيد المقلاة، هزها هزة خفيفة، بمثل ما
نفعل عندما نشوي أباً قرّوة.

- هل سنأكله هذا المساء ؟ سأل بول.

- لا، قال العم ضاحكاً. لن نأكله. لا هذا المساء ولا في أي وقت آخر.

- لماذا إذن تسويه ؟

- لكي تكون حديثاً للأولاد الصغار. هيا الآن، اذهبوا والعبوا خارجاً. فلو أصابكم رشاش الدهن المغلي، سيقع جلدكم مدى الحياة. هيا، اذهبوا من هنا!

« » « »

حين صرنا في الخارج، قال لي بول : إنه لا يعرف الطبخ.

- أتصور أن ما يفعله ليس طبيخاً. ويخيل لي أنه سر. سوف نسأل أبي في هذا الموضوع.

لكن أبي لم يكن موجوداً. فقد ذهب مع زوجته، في نزهة. ذهباً بغير أن يصطحبنا، وهو ما بدا لي خيانة. لذا فقد توجب علينا أن ننتظر حتى المساء. وكرست كل بعد الظهر لتأليف مراثية لطيفة لزعيم كومانش (كلمات وموسيقى)

وداعاً أيها المرج الرحيب

فذلك السهم الغريب

قد أشل ذراعي المنتقم

لكنني تحت التعذيب

ظل قلبي طاهراً

يدهش المسافرا

أيها «الباوني» الأجبن

لاني أراك تتفنن

وأنا أضحكك منك وأسخر

وعلى تعذيبك أتمسخر

فأنا منه لا أهاب

كأنه لدع الذباب

وكانت المراثة من سبعة أو ثمانية أبيات... وصعدت لحجرتي، وأخذت
أندرب على حفظها في سكون وانفراد. بعدها عكفت على طلاء وجه بول
بطلاء الحرب، ثم على طلاء وجهي، وأخيراً، توجهت في وقار، يدي خلف
ظهري، وعلى رأسي تاج الريش، نحو عامود التعذيب، وربطني بول لإليه بشدة،
وهو يصرخ بضع صرخات مبسوطة، تعبر عن السباب بطريقة الباوني. ثم راح
يرقص حولي رقصة وحشية، على حين بدأت أنا في إنشاد أنشودة الموت.

كنت أؤدي دوري بجدية شديدة، ونجحت تماماً في تمثيل بعض
«الضحكات الهازئة» بما جعل جلّادي يبتعد عني بنوع من الحيطة، ويتشابه
بعض القلق وبلغ انتصاري أوجه مع الأبيات الأخيرة :

وداعا يا إخوتي

وداعا يا أزهار الربيع !

وداعا يا فرسي ويا أعنتي

واسوا أمي التي تبكي

قولوا لها إنه منذ حين

مات ابنها ميتة المقاتلين !

ثم زغردت زغرودة هندية مؤثرة، جعلتني أنا نفسي تهيج أشجاني، فبكيت حتى غطت الدموع وجهي، عند ذلك، تركت هامتي تسقط على صدري، وأغمضت عيني، ومِت. وسمعت صرخة متألة، ولحمت بول، يصبح وهو يفر :

- لقد مات !! لقد مات !

كان أبي هو الذي جاء بعد هذا ليفكّني، ولاحظت أنه رغب في أن يرضني على عذباتي الخيالية مسحة حقيقية. ولكنني كنت فخوراً بنجاحي في التمثيل، وعزمت بيني وبين نفسي على أن أعيد المشهد بعد العشاء، لكنني وجدت مفاجأة لطيفة، أثناء مروري بقاعة الطعام، وأنا ذاهب لغسل يدي في المطبخ.

كان أبي والعم جول قد ركّبا كل وصلات الطاولة الإضافية، وغطوها بمفرش من المشمع. وكانت مرصوفة على هذه المساحة الكبيرة كل أنواع الأعاجيب، فكانت عليها أولا صفوف من الخراطيش الفارغة، كل صفّ منها له لونه : أحمر، أو أصفر، أو أزرق، أو أخضر.

وكانت، إلى جوار ذلك، أكياس قماشية، بحجم كف اليد، ثقيلة كالأحجار، كتب على كل منها رقم واضح من هذه الأرقام ك ٢، ٤، ٥، ٧، ٩، ١٠.

كما كان هناك أيضاً ميزان صغير، بكفة واحدة، معلق بمشبك على حافة الطاولة، وآلة غريبة نحاسية، ذات ذراع له زر خشبي، ثم كان يتصدر كل هذا في منتصف الطاولة، الطبق الذي طهاه العم جول.

- هاكم ما طهوته هذا الصباح ؟ إنها الحشوات السمكية .

- ولأي شيء هذه ؟ سأل بول .

- لعمل الطلقات ! قال أبي .
- هل أنت ذاهب للصيد ؟ سألت أنا .
- بالضبط !
- هل لديك بندقية ؟
- نعم !
- وأين هي ؟
- سترها بعد قليل ! أما الآن، فاذهب واغسل يديك، لأن الحساء قد عُرف !

< > < >

صار الحديث مشوقاً، أثناء العشاء. تحت شجرة التين. فلم يكن أبي، طفل المدن، وسجين المدارس، قد قتل في حياته حيواناً أو طائراً، لكن العم جول كان يصطاد منذ نعومة أظفاره. ولم يكن الأمر غامضاً عليه. وعندما بدأنا في تناول الحساء، شرع في الحديث عن الطرائد.

- ما الذي تعتقد أننا سنجده في الثلال، قال أبي .
- لقد نقصيت عن ذلك في القرية، قال العم .
- وبالطبع أعطوك معلومات خاطئة، رد أبي، فهؤلاء الفلاحون يغارون من الصيد.
- وابتسم عمي ابتسامة مأكرة.

- طبعاً ! قال. ولكنني لم أفصح عن أننا سنذهب للصيد ! فقد سألتهم فحسب أي نوع من طرائد الصيد يمكنهم بيعه لنا !
- هذا هو المكر بعينه ! قال أبي .
- وشعرت بالإعجاب لهذه المهارة، ولكن بدا لي أنها منافية لمبادئنا.
- وماذا قال لك الفلاحون ؟
- قالوا لي أولاً إنه توجد منها طيور صغيرة.
- صغيرة ؟ استفسر أبي، كمن صلم.
- أجل ! قال العم . فهؤلاء المتوحشون يقتلون كل ما يطير.
- هل يقتلون الفراشات ؟ سأل بول .
- لا. فالفراشات تعاني الجفاف، قال أبي. فما الذي يمكنهم زرع
- وحصده بغير ماء ؟ فهم في عمومهم فقراء جداً، والصيد بعينهم على الحياة،
- لذا يبيعون الطيور الكبيرة، ويأكلون الصغيرة !
- ويدون أن نذهب في الحديث عن أنواعها، قال العم، فالعصافير الصغيرة المشوية...
- على أية حال، قالت خالتي، أنا أمنعك من قتل عصافير الكناريا !
- لا الكناريا، ولا البيضاوات، أقسم لك... لكنني سأصطاد طير «أبيض العجيزة» ولبيل الشعير «الأرطلان».
- الأرطلان لذيذ، قالت خالتي...
- وطير الدُّج ؟ قال العم، وهو يغمز بعينه.
- هل تسمحون لنا بصيد الدُّج ؟

- بالطبع ! قالت أمي . جوزيف يعرف جيداً كيف يشويهها . لقد أكلنا منها في العام الماضي بعيد الميلاد .

- أنا، قال بول بحماس، إذا وجدت دُجّة. أكلها كلها ! ولكنني لا أكل رأسها .

- أتصور، قال العم . إننا يمكن أن نجد الأرانب .

- نعم نعم ! قلت . فهي موجودة حتى على مقربة من البيت هنا . فهي تأتي لقضاء حاجاتها قريباً من شجرة اللوز . وتملاؤها ضراطاً .

- تخيّر ألفاظك، قالت أمي لي بقسوة .

- ثم إننا، تابع العم، سنجد بالتأكيد طيور الحجل، والأكثر من هذا، طيور الحجل الحمراء .

- أمي حمراء كلها ؟

- لا، بل بنية فاتحة، لها رقبة سوداء، وأرجل حمراء، وريش أحمر في الأجنحة وعند الذيل .

- سيكون هذا بديعاً للتيجان الهندية !

- لقد حدثوني عن الأرانب البرية !

- مع ذلك، قال أبي، ففرائسوا أكد لي أنه لا يوجد شيء منها .

- أعطه إذن ستة فرنكات ثمناً لواحد منها وسترى أنه سيحضره لك ! فهم يبيعونها بخمسة فرنكات في فندق بيشواري ! وأمل أن تجنّبنا بنادقنا تعاسة أن ندفع فيها هذا المبلغ .

- سيكون هذا شيئاً جميلاً، قال أبي .

- كما تقول، يا عزيزي جوزيف، فطلقة جميلة سوف توفر علينا هذا العناء. لكنه يوجد كذلك ما هو أكثر إثارة، ففي وادي التّأومي. على مقربة من هنا. يعيش ملك الطرائد.

- ومن هو ؟

- خمن ! قال العم.

- الفيل ! صاح بول.

- لا ! قال العم. لكنه أمام إحباط الأخ الصغير، أضاف : أنا لا أعتقد أنه توجد أفيال، ولكنني على كل حال لست متأكداً. هيا يا جوزيف، ابدل جهداً صغيراً إنه الطريدة النادرة، أجمل الطرائد، وأكثرها مكرّاً فما هي ؟ ما هي الطريدة التي يحلم بها كل صياد ؟

وتدخلت في الحديث :

- وما لونها ؟

- بنية، حمراء، ذهبية.

- الدّراج ! صاح أبي.

لكن العم، الذي نفى هازراً رأسه، أضاف :

- تبا له ! ... الدّراج جميل نعم، أوافق معك - لكنه في الأصل داجن، ومن السهل التصويب عليه عن التصويب على هدف يطير، ومن وجهة نظر الذّوّاقة، فإن لحمه قاس ولا طعم له، ولكي تجعله يؤكل، لا بد من تركه «يدرج» أي يفسد قليلاً... لا ليس الدّراج ملك الطرائد.

- طيب، قال أبي، ما هو إذن ملك الطرائد ؟

ونفض العم، عاقدا يديه على صدره، وقال : الحجل الرومي !

ولكي ينطق هذا الاسم، فحَم من نطقه، وهو يفتح عينين منبهرتين. ومع هذا لم يحدث الأثر الذي انتظره، لأن أبي سأل :

- وما هذا ؟ ولم يضطرب العم أدنى اضطراب.

- انظروا، صاح بنغمة رضا، فهذه الطريدة نادرة لدرجة أن جوزيف نفسه، لم يسمع بها من قبل ! ... حسناً، الحجل الرومي هو الحجل الملكي، وهو النوع الأكثر سُمُوًا في الحجل، لأنه ضخّم وزاهي اللون. إنه أشبه بالديك الذي يعيش في حلتجات الأراضي الرملية، بالمرتفعات والأودية الصخرية - ولكنه حذر كالثعلب، فهو يسير في أزواج شديدة الاحتراس، ومن الصعب جداً الاقتراب منه.

- أنا، قال بول، أعرف ما يجب عمله في هذه الحالة. فسوف أتمدّد على بطني وأزحف كالثعبان، بدون أن أتنفس، فأقترب منه بغير أن يحس بي !

- هذه فكرة جيدة، قال العم جول، سوف نأتي لنستعين بك، عندما نقع على الحجل الرومي.

- ألم تصطده أنت قبلاً ؟ سألت أمي.

- لا، قال العم بهيئة المتواضع، لقد صادفته عدة مرات في وادي البيرينيّة الأسفل، ولم أتمكن من إصابته.

- ولكن من قال لك: إنه يوجد حجل رومي هنا ؟

- إنه الصياد المخالف المدعو موند دي باريون.

وسألت :

- أهو من أصل تبيل ؟

- لا أعتقد، قال أبي، فاسمه هذا تحريف لاسم : إدموند دي بابيون.

وأسعدني هذا الاسم، وعزمت على أن أتعرف على هذا السيد الغامض.
- لقد اصطاد بنفسه واحداً منها في العام الماضي، وباعه في المدينة بعشرة فرنكات.

- يا إلهي ! قالت أمي وهي تعقد يديها. فلو أنك تمكنت من صيد واحد منها في اليوم... سيصلح الحال تماماً !

- هذا ليس فقط حلم الصياد، قال أبي: بل هو أيضا هوسُ ربات البيوت !
لا نتحدثنا ثانية عن الحجل الرومي يا عزيزي جول، لأنني سأحلم به هذه الليلة، وستفقد زوجتي العزيزة عقلها !

- إن ما يكدرني ويقلقني، قالت الخالة روز، أن الخادمة قالت لي إنه توجد أيضاً خنازير برية في هذه الأنحاء.
- خنازير برية، قالت أمي فزعاً.

- نعم نعم، قال العم مبتسماً... ولكن إطمئني، فهي لا تنجيء حتى هنا !
فهي فقط عندما يشتد الصيف، وتُجفّ الينابيع في سلسلة جبال سان فكتوار، تنزل حتى نافورة (بئر التوتة)، لأنها النبع الوحيد في الإقليم الذي لا يجف أبداً.
لقد قتل باتيستاً اثنين منها في العام الماضي !
- لكن هذا مخيف ! قالت أمي.

- على الإطلاق ! قال جوزيف مطمئناً لإياها، فالخنازير البرية لا يهاجم الإنسان، بل هو على العكس يهرب منه من على البعد، ولا بد من الحيلة لكي يستطيع الصياد الاقتراب منه.

- كالحجل الرومي ! صاح بول.
- بشرط، قال العم في نغمة وقار، ألا يكون الخنزير جريحاً !

- هل تعتقد أن بإمكانه في هذه الحالة أن يقتل رجلاً ؟

- عجباً ! صاحب العم... كان لي صديق -رفيق صيد- يدعى مالبوسكيه،
كان حطاباً قديماً، صار أكتع، بسبب حادثة عمل.

- وما الأكتع ؟ سأل بول .

- هو الذي فقد إحدى ذراعيه. ولأن مالبوسكيه لم يستطع بسبب ذلك أن
واصل العمل كحطاب، لأنه لم يعد يقدر على الإمساك بالبلطة، تحول إلى
لصيد وأصبح صياداً مخالفاً.

- نعم... بذراع واحدة ! وأؤكد لك أنه كان ماهراً في التصويب ! فكان
يعود كل يوم بطيور الجبل، والأرانب، والأرانب البرية التي كان يبيعها في السر
لطبّاخ القصر. وذات يوم، وجد مالبوسكيه نفسه وجهاً لوجه أمام خنزير بري
-ليس بشديد الضخامة- يزن سبعين كيلوجراماً بالضبط، فقد وزناه فيما بعد.
وكان مالبوسكيه قد حاول صيده، وصوب عليه، ولم يخطئه، لكن الحيوان كان
قويًا بحيث أمسك به، وأوقعه أرضاً ومزقه إرباً. نعم، إرباً، كسر عظمي. فعندما
وجدناه، رأينا في يادئ الأمر بمنتصف الطريق إليه، جبلاً طويلاً أصفر، مائلاً
للخضرة، طوله حوالي عشرة أمتار، وكان هذا الجبل أمعاء مالبوسكيه.

وصاحت أمي وخالتي باشمئزاز: أوف. بينما أنفجر بول في الضحك، وهو
يخبط يديه.

- جول، قالت خالتي، لا يجب أن تضحكي أشياء كريهة أمام الأطفال.

- على العكس ! قال أبي (الذي كان يجد قيمة تعليمية في كل كارثة)،
فهذا شيء طيب ليتعلموه، لأن من المستحسن أن يعرفوا أن الخنزير البري حيوان
خطر ! فإذا ما حدث لكم يا أولاد، عن طريق المعجزة، أن رأيتم واحداً منها،
تسلقوا الشجرة القريبة منكم في الحال.

- جوزيف، قالت أمي، عِدني أنت الآخر أن تتسلق الشجرة، وألا تطلق عليه طلقة واحدة.

- سيكون مشهده بديعا على هذا النحو، صاح العم. ولكني أريد أن أقول لكم إن مالبوسكيه لم يكن لديه رصاص قوي، كالذي لدينا.

وذهب وفتح درجاً أخرج منه حفنة من الخراطيش، وضعها على الطاولة.

- هي خراطيش أطول من العادية، وقد حشوتها بعبوة مضاعفة من البارود، قال، ويفضلها سيخرُ الحيوان صريعاً في التو... بشرط، أضاف وهو يوجه الحديث لأبي، أن تصيبه على الأقل في جانبه الأيسر، وانتبه جيداً يا جوزيف... قلت الأيسر.

- لكنه، قال بول، إذا كان يعدو أمامك، فلن ترى سوى فخذه، فما العمل في هذه الحالة ؟

- ليس هناك أبسط من هذا، ويدهشني أنك لم تخمنه !

- أن نصوب على فخذه الأيسر ؟

- إطلاقاً، قال العم، يكفيك فقط أن تعرف أن الخنزير البري مولع بالشيكولاتة...

- وماذا بعد ؟ سألت أمي باهتمام شديد.

- انظري يا أوجستين، قال العم، ستحنين على جانبك الأيسر، وتصيحين

- بكل قواك- في اتجاه اليسار : آه ! الشيكولاتة اللذيذة . عندها سيستدير الخنزير البري المقتون، مرتكزا على جانبه الأيسر، ويقدم لك بهذا الشكل كتفه

الأيسر.

وانفجرنا أنا وأمي ضاحكين، وتبسم أبي. وأعلن بول :

- أنت تقول ذلك للضحك !

- لكنه لم يضحك، فلم يكن متأكداً من شيء.

< > < >

هذا العشاء الصيدي دام أكثر طويلاً من المعتاد، وقمنا من على الطاولة، ليشروع أبي وعمي في عمل عبوات الرصاص. وأعلنت عن رغبتني في أن أشهد هذا العمل، لأنني لاحظت أنه سيكون «درساً مفيداً» .

- نصف ساعة، لا أكثر، قالت أمي ، وحملت بول، الذي راح يئن باحتجاجات واهنة، وهو غارق في نومه.

- قبل كل شيء، قال العم، لتفحص الأسلحة !

وذهب وأحضر، من دولاب الصحون، قراباً من جلد أشقر، كان موضوعاً خلف الأطباق (مما أشعرنني بالخزي الشديد لأنني لم أكتشفه قبلاً)، وسحب منه بندقية جميلة للغاية، بدا عليها أنها جديدة لم تستعمل. كانت ماسورتاها سوداوين سواداً جميلاً غير لامع، وكان زنادها مطلياً طلاءً معدنيّاً، وعلى قائمها الخشبي المنحوت، صورة كلب مقع، محفورة في الخشب اللامع المدهون. وأمسك أبي ببندقية العم، وتفحصها، وصفر صفرة إعجاب قصيرة.

- هي هدية الزواج من أخي الكبير، قال العم، عيار ستة عشر من نوع

فيرني كارون. بزناد مركزي.

وأخذ البندقية، وفك مفصلها، فافتتح السلاح مصدراً صوت تكة لطيفة، وراح العم يحدق في الماسورتين بمواجهة المصباح.

- إنها مشحمة جيداً، قال. لكننا سنرى ذلك في الغد بشكل أوضح.

واستدار ناحية أبي وقال :

- أين بندقيتك ؟

- في الغرفة.

ومضى بخطوات واسعة.

كنت أجهل أنه يمتلك بندقية، وشعرت بالسخط لأنه احتفظ لنفسه بسر جميل كهذا، وانتظرت عودته بلهفة، وحاولت أن أخمن من صوت خطواته، وصرير المفتاح، المكان الذي خبأها فيه. لكن هذا التنبؤ أفضى إلى هباء، وسمعته يهبط بخطوات متعجلة.

كان يحمل قراباً كبيراً أصفر، اشتراه -بغير علمي- من تاجر العاديات، لأن الخدوش الكبيرة التي كانت به تدل على قدمه، وتشبه بمقها المائل للبياض بأن هذا الشيء كان من عمل صانع ورق مكبوس.

وفتح هذه المسخة الكرتونية، وهو يقول، بابتسامة مقطبة بعض الشيء :

- ستكون هذه شيئاً مسكينا للغاية، بالنسبة لسلاح حديث كالذي معك، لكن أبي هو الذي كان قد أعطاني إياها.

وبعد أن أضفى بهذا الشكل على هذه البندقية الرديئة العتيقة، صورة الذكرى العائلية المحترمة، سحب من القراب ثلاثة أجزاء لبندقية هائلة الحجم. وأخذها العم، وركبها، وجرب زنادها في سرعة خاطفة، وصاح أمام طول

السلاح.

- يا إلهي ! إنها قرينة.

- تقريباً، قال أبي، لكن يبدو أنها محكمة جداً.

- ليس هذا شيئاً مستحيلاً، قال العم .

لم يكن قائمها الخشبي منحوتاً، وكان قد فقد طلاءه، ولم يكن زنادها مطلياً، وكانت إبر الضرب بها كبيرة كأنها من صنع ورشة حدادة، وشعرت بعض الشيء بالإهانة. وفتح العم جول البندقية، وتفحصها بطريقة مقطبة.

- لو لم تكن هذه البندقية من عيار صار مجهولاً، فستكون من عيار ١٢ ١

- نعم، هي من عيار ١٢ ، أكد أبي، وقد اشترت لها أظرفاً عيار ١٢ ١

- مدببة. بالطبع.

- أجل مدببة.

وأخرج من علبة كرتونية ظرفين أو ثلاثة فارغة، ومد يده بها للعم. كانت الأظرف تبرز من قواعدها النحاسية مسامير صغيرة مدببة، ودفع العم بواحد منها في ماسورة البندقية.

- هي طويلة بعض الشيء، قال. لكنها بالفعل من عيار ١٢ مدبب... هذا النوع عفا عليه الدهر منذ وقت طويل، لأنه كان خطراً نوعاً ما.

- أي من النوع الخطر ؟ سألت أمي.

- خطر بسيط، قال العم، لكنه خطر على كل حال. انتبهني جيداً يا أوجستين، فنحن عندما نضرب على الزناد تخرج إبر الضرب لتضرب هذا المسمار الصغير النحاسي في قاعدة الظرف ليشعل الحريق في البارود. لكن هذا المسمار الصغير يظل للخارج كما ترين، فلا يحميه شيء، ومن المحتمل أن

يتعرض لضغطة غير محسوب حسابها.

- مثل ماذا على سبيل المثال ؟

- على سبيل المثال... إذا سقطت طلقة من أصابع الصياد، وصادف أن وقعت على طرفها المدب، فربما انفجرت عند قدميه.

- هذا شيء لن يكون قاتلاً، قال جوزيف بنغمة مطمئنة. ثم إنني لن يحدث أبداً أن أترك طلقة تسقط مني.

- ومع هذا، قالت أُمي بصوت خفيض، سقطت الصابونة من يدك ثلاث مرات هذا الصباح...

- أولاً، قال أبي بضيق، الصابونة شيء ينزلق بسهولة شديدة، لأنها عبارة عن كتلة دهنية، كما أن المرء لا يحتاط كثيراً عندما يمسك بالصابونة، فهو يعرف أنها لن تنفجر. ثم زيدي على ذلك أنني أغلق عيني عندما أصبّ وجهي، ولا يوجد إنسان سليم العقل يغلق عينيه وهو يقلّب بين يديه الرصاص. فاطمئني من هذه الناحية.

- جوزيف على حق، قال العم. وأنا شبه متأكد أنه لن يترك هذه الذخائر تسقط من يده. لكنه من الوارد أيضاً أن تحدث حوادث أخرى. فقد شهدت ذات مرة حادثة شديدة الغرابة.

كنت صغيراً جداً، وكان ذلك في زمن البنادق ذات الذراع، وكان رئيس جمعية الصيد هو السيد بنازيه (نطقها بنازيت)، وكان رجلاً يمكن ملاحظة سمته حتى من على البعد، فكان يمكن تقدير وزنه بقطار. وكان لا بد من وصل حزامين من أحزمة الخراطيش معا لكي يكون له منهما حزام على مقاسه... وذات يوم، في أعقاب اجتماع غداء مع الصيادين انزلق على السلالم

فتدحرج من أعلاها إلى أسفلها، بحزام خراطيشه الهائل المربوط حول وسطه، وكان معبأً بالخراطيش ذات البروز... فحدث مهرجان فرقعات شبيه بما يحدث في حلبة ضرب النار... ويؤسفني أن أعلمكم أنه مات في تلك الحادثة...

- جوزيف، قالت أمي شاحبة، لا بد من شراء بندقية أخرى، وإلا فلن تذهب للصيد !

- هدئي من روعك ! قال أبي ضاحكاً. أولاً أنا لا أزن قنطاراً، ثانياً لن أترأس «اجتماع غداء للصيادين» في بلد تنتج نوعاً جيداً من الخمر -بما أنني متأكد أن انفجار السيد بنازيت سبقه أولاً إفراغ دن من النبيذ الأحمر !

- هذا وارد جداً، قال العم جول وهو يضحك. فضلاً عن أنني يمكنني أن أطمئنك يا أوجستين، فهذه الحادثة حتى الآن هي الوحيدة من نوعها التي حدثت. ونهض مرة واحدة، وحمل البندقية عيار ١٢ على كتفه.

وصاحت بي أمي: «اجلس مكانك الا تتحرك !»

وأخذ العم لخمس مرات أو ست، يتفحص بالتناوب كلاً من الزناد، وذراع التأمين والسفود. ثم أعلن قراره.

- هذه البندقية قديمة جداً، وتزن ثلاثة أرطال زيادة عن المطلوب، لكنها يمكن التحكم فيها جيداً في اليد وعلى الكتف. وفي رأيي أنها سلاح رائع !

وانفجرت أسارير أبي بابتسامة، ونظر إلى الحضور بنوع من الاعتداد، إلى أن أضاف العم : هذا إذا لم تنفجر .

- ماذا ؟ قالت أمي المروعة.

- لا تخشي شيئاً، يا أوجستين، سنقوم بكل ما هو ضروري للتثبيت، فسوف نطلق الخرطوشات الأولى بربط البندقية بخيط من على البعد، فإذا انفجرت، سيفقد جوزيف بندقيته فقط، لكن ذراعه اليمنى وعينه لن يصيبهما شيء.

وتفحص مغلاق البندقية من جديد، وقال :

— قد يمكننا أيضاً بتقليل قوة العبوة، أن نغير عيارها، ونجعلها بندقية صيد بط. عموماً سنتثبت من كل شيء غداً، أما هذا المساء، فسنجهز رصاصنا.

واتخذ صوته لهجة الأمر !

— قبل كل شيء، أطفئوا كل نار بالمنزل ! فالخطر الذي يمثله هذا المصباح في ذاته خطر كبير ! واستدار ناحيتي ليضيف :

— نحن لا نمزح مع البارود !!

وهرعت أمي، المرعوبة، إلى المطبخ، وسكبت كسرولة ماء على قطع الجمر الأخيرة التي كانت ما تزال تنقد بالموقد. أثناء ذلك، أمّن أبي على مفتاح الضوء بالمصباح النحاس، وعلى إحكام تعليقه.

بعد أن أُتخذت هذه الاحتياطات، جلس العم في صدر الطاولة، وأجلس أبي أمامه. أما خالتي، التي بدا لها أن هذه الحفلة الخطرة ليس بها سر، فقد صعدت إلى غرفتها، لتلقم الرضاعة للصغير يبير، ولم تنزل بعد ذلك.

وجلست أمي على مقعد، على بعد مترين من الطاولة، ووقفتُ أمامها ما بين ركبتيها، وكنت أفكر بأن جسدي سيحميها بهذا الشكل لو حدث انفجار.

وأمسك عمي بأحد القوارير الحديدية البيضاء، ونزع بحذر الضمادات الملصقة التي تؤمن على السدادة. ولحّت ظهور خيوط دقيقة سوداء تخرج من الفوهة، وأمسك القارورة بخفة بين أصبعيه الإبهام والسبابة، وجذب السدادة التي كانت تحت الضمادة. ثم أمال عنق القارورة فوق الورقة البيضاء فخرجت حفنة من البارود السوداء. واقتربت منهراً... كانت هذه البودرة إذن، هي البارود، المادة الرهيبة التي قتلت الأعداد الهائلة من البشر والحيوان، ودمرت الأعداد الهائلة من البيوت، ودفعت بنابليون حتى روسيا... والتي يمكن وصفها

بأنها فحم مسحوق، لا أكثر... وأمسك عمي بكسّبان خياط كبير من النحاس، مثبت في طرف مقبض من الخشب الأسود.

- هذا هو المكيال الذي نعاير به العبوة، قال لي. وهو مدرّج بالعلامات التي تحدد الجرامات والديسيجرامات، بما يسمح لنا بالدقة الكافية.

وملأه لحافته، وأفرغه على كفة الميزان الحساس. وهبطت الكفّة، ثم علت ببطء، وتوازنت.

- إنه ليس رطباً، قال، فهو يزن وزنه المضبوط، وله بريقه. إنه ممتاز. وشرع في ملء الأظرف. وهي العملية التي تعاون معه فيها أبي، فقد كان يفرز فوق البودرة، الحشوات الدهنية التي طبخها العم جول. ثم جاء دور الرصاصات، ثم دور حشوات أخرى، هذه الأخيرة كانت على اسطوانة كرتونية عليها أرقام كبيرة سوداء تحدد حجم الرصاصة.

بعد ذلك جاء دور الترصيص، فكانوا يطوقون بالمنجلة الجزء الأعلى من الخرطوشة، بنوع من الحشوة المطاطية، التي تحكم نهائياً إغلاق هذه التوليفة القاتلة.

- عيار ١٦، سألت أنا، أهو أكبر من عيار ١٢ ؟

- لا، قال العم، إنه أصغر قليلاً.

- لماذا ؟

- حقاً ! قال أبي، لماذا كانت الأرقام الأصغر، هي العبوات الأكبر ؟

- هذا ليس سرّاً كبيراً. قال العم جول بأستاذية، و لكن حسناً فعلتم بطرحكم السؤال، فعيار ١٦، هي بندقية نصنع لها ستة عشر رصاصة برطل من الرصاص. أما عيار ١٢، فنفس رطل الرصاص لا يُمَوّن لها سوى اثنتي عشر

رصاصه، ولو كان هناك عيار واحد، فمعنى ذلك أنه سيكون بندقية تطلق الرصاصات التي وزنها رطل.

- هذا شرح شديد الوضوح، قال أبي، فهل فهمت ؟

- نعم، قلت، فكلما صنعنا رصاصات أكثر من رطل الرصاص. كانت هذه الرصاصات أصغر. وهو ما يجعل ماسورة البندقية أضيق، عندما يكون العيار أكبر.

- أنت تتحدث عن الرطل الجديد الذي يزن ٥٠٠ جرام ؟

- لا أعتقد، قال العم. أتصور أن الأمر يتعلق بالرطل القديم، الذي هو ٤٨٠ جراماً.

- هذه معجزة ! قال أبي فجأة باهتمام.

- لماذا ؟

- لأنني أجد في ذلك منجماً من مسائل الحساب للصف المتوسط : « صياد لديه سبعمائة وستون جراماً من الرصاص، وتمكن من صهر أربع وعشرين رصاصة لبندقيته. مع اعتبار أن وزن الرطل القديم هو أربعمائة وثمانون جراماً، وأن الرقم الذي يمثل العيار يمثل عدد الرصاصات التي يمكن عملها لبندقية برطل من الرصاص ؟ فكم عيار بندقيته ؟ ».

وأقلقني هذا الابتكار التربوي قليلاً، خشية أن يتم تجربته على حساب العابي. ولكنني اطمأنت حين فكرت أن أبي بدأ مولعاً جداً بهوايته الجديدة بما لن يجعله يضحي بالإجازة بإتلاف هواياتي، وأكملت لي الأيام بعد ذلك سلامة تقديري.

وجذبت السهرة التي انتهت بصف فوج من الخراطيش متعددة الألوان، رصت كأنها جند من الرصاص، كل شغفي واهتمامي. رغم هذا داخلني

إحساس بالضيق، ونوع من عدم الارتياح لم أتمكن من تحديد سببه . ولم أعرف هذا السبب إلا عندما بدأت خلع جواربي.

كان العم جول يتحدث طيلة السهرة كالعارف وكالأستاذ، بينما كان أبي، الذي هو عضو لجنة الامتحان في الشهادة الدراسية، يستمع بانتباه، وفي وضع الجاهل، كأنه تلميذ. كنت أشعر بالخزي والإهانة.

وفي صباح اليوم التالي، وأثناء ما كانت أمي تصب القهوة في حليبي، بحث لها بجانب من مشاعري.

- هل يسرك أنت، أن يذهب بابا للصيد ؟

- ليس كثيراً، قالت لي. فهي تسلية خطيرة .

- هل تخشين أن يسقط من على الدرج بخراطيشه ؟

- لا لا ... قالت، فهو ليس أخرق لهذا الحد... لكن على كل حال، هذا البارود خائن.

- أما أنا، فليس هذا هو السبب في أن الأمر لا يعجبني.

- وما السبب إذن ؟

وترددت لحظة، تبلّعتُ فيها بجرعة كبيرة من القهوة بالحليب.

- ألم تري كيف أن العم جول فخور بنفسه ؟ فهو الذي يوجه كل شيء، والذي يتحدث طيأة الوقت.

- إنه يفعل ذلك ليعلم أباك. وهو يفعل هذا بود وصداقة.

- أما أنا فألاحظ أنه مبسوط جداً لكونه أقوى من أبي. وهذا لا يسرني إطلاقاً. فأبني يهزمه دائماً، في لعب الكرات، أو في الضامة. أما في لعبة الصيد هذه، فأنا متأكد أن أبي سيخسر، وأجد من الحمق أن نلعب لعبة لا نعرفها. فأنا

- لماذا؟ قال بول فاغراً فاه محملاً عينيه.

- عجباً، لا أدري لماذا!... القصد، كنت أشعر بالخزي والإحباط... ولكن عند خروجي من غيضة «تابس» وانعطائي في كريمة بروكيول ماذا رأيت؟...
- أجل. ماذا رأيت؟ قال بول بتوجس.

وصحت أنا : «حجل بريّ!»

- لا، قال عمي، لم يكن ما رأيته من النوع الذي يطير، وكان ضخماً جداً. فماذا كان؟ لقد كان غريباً!... نعم كان غريباً ضخماً الحجم، وقد خرب لثوه خطأ من أعتاب الأكل! فوضعت بندقيتي على كتفي، وضربت...
كانت الحكايات تدور دائماً حول نفس الشيء، ومع ذلك كانت جديدة دوماً. يصوب العم ويضرب. ثم للحيلة، يضرب ثانية. وينضم الحيوان الصريع إلى قائمة الضحايا اللامتناهية.

كان أبي يستمع إلى هذه السرديات المجيدة، بغير أن يقول شيئاً، وهو ينظف، بهدوء وكتلميذ مبتدئ، ماسورة بندقيته، بفرشاة مستديرة مثبتة بطرف عصا طويلة، بينما رحت أنا أجلو الزناد وحلقته باكتساب. وعند الظاهر، كانت الأسلحة قد تم تركيبها، وتزيينها، وتلميعها، وأعلن العم!
- سنجرها بعد الظهر.

» » »

واستمر مسلسل مفاخره طوال تناول الطعام، وانعطف بنا حتى جبال

البيرينيه، ليقص سرديّة عن صيده لغزلان الشامواه.

- نظرت بنظارتي المكبرة، فماذا رأيت ؟

ونسي بول طعامه وهو يتابعه، كذلك أمي وخالتي -اللتان- بعد موت اثنين من غزال الشامواه، ترجّتا الراوية أن يتوقف عن سرد مفاخره، وهو الأمر الذي بدا لي مدهنة كبيرة. وتخيّنت فرصة توقفه لكي أصوغ بمهارة سؤالاً شخصياً.

فمنذ بداية الاستعدادات، لم يكن لديّ شك في أنني سأكون محل طلب من الصيادين لأصبحهم وأساعدهم. لكن كلا من أبي أو عمي لم يقل هذا بوضوح، ولم أكن قد سمعت إطلاقاً لطرح السؤال، خشية رفض تلقائي. لذا فتقد راوغت حول الموضوع بسؤال آخر.

- والكلب ؟ قلت . ألن يلزمكم كلب ؟

- سيكون أمراً حسناً لو أن لدينا كلباً، قال العم. ولكن من الصعب الحصول على كلب مدرّب.

- أليست تباع لدى التجار ؟

- نعم، قال أبي. لكن هذا سيكلفنا خمسين فرنكاً على الأقل !

- هذا هو الجنون بعينه ! صاحبت أمي .

- أوه. ليس الأمر كذلك ! قال العم. فلو أن كلباً من سلالة جيدة يكلف خمسين فرنكاً فقط، صدقوني لن أتردد في شرائه، لكنك بهذا السعر، لن تتمكن سوى من شراء كلب هجين، يضللك فبدلاً من تعقب أثر أرنب بري يتعقب أثر فأر !... فالكلب المدرّب، يتراوح سعره بين الثمانين والخمسمائة فرنك.

- ثم ماذا ستفعل به، قالت خالتي، بعد انتهاء موسم الصيد.

- بعد انتهاء موسم الصيد، سنضطر لبيعه بنصف ثمنه ! فضلاً عن أنه من

الخطر جداً تربية كلب في بيت به طفل رضيع، أضاف العم.

- صحيح، قال بول، فقد يأكل ابن العم الصغير !

- لا أعتقد، ولكنه قد يُعديه، بغير قصد، بالأمراض.

- التهاب الزور، صاح بول، لقد أصابني، لكن ليس بسبب كلب، بل بسبب تيار الهواء.

ولم ألح، فلم يكن وارداً لديهم أن يأتوا بكلب. لذا، فهم لا شك أعدوا عدتهم للاعتماد عليّ في جمع الطرائد المقتنصة. ولم يقولوا ذلك، لكنه كان بالطبع أمراً متوقّعا، فلم يكن من الضروري لي الحصول على وعد مؤكد، خصوصا في حضور بول، الذي كان قد عبر عن عزمه متابعة الصيد من على بعد وهو يضع القطن في أذنيه، وهو العزم الذي لم يكن له سند والذي كان بإمكانه أن يفشل خططي.

لذا فقد صممت بشكل فطن.

كان موعد افتتاح موسم الصيد يقترب، ولم يعد أحد بالمنزل يتحدث إلا عن الصيد. وعلى الرغم من السرديات الملحمية الطويلة والمتتابة، لم يكن العم جول قد بدأ بعد شروحه وإبراهيمه التقنية، وذات يوم في الساعة الرابعة عقب راحة القيلولة، قال :

- يا جوزيف، سأشرح لك تفصيلاً «ضربة الملك»، التي هي أيضاً ملكة كل الضربات. أولاً، أصغ إليّ جيداً... ستكون أنت مختبئاً خلف ساتر، ويكون كلبك قد قام بعمل دورة كاملة حول الكرمة، هذا إذا كان كلباً مدرباً، لذا ستأتي طيور الحجل نحوك مباشرة. عندئذ ستراجع أنت خطوة للوراء، لكنك لن ترفع بندقيتك إلى كتفك في هذه اللحظة، لأن الطريدة قد تلمح بندقيتك، ويكون لديها الوقت لتتسلل. ستنتظر إلى أن تظهر الطيور في مجال البصر. وما

إن تظهر في مجال البصر، حتى ترفع البندقية على الكتف، وتصوب. لكن لحظة التصويب، وبضربة خاطفة، سترفع طرف الماسورة بمقدار عشرة سنتيمترات، وأنت تضغط على الزناد، وتختني رأسك، مقوساً ظهرك.

- لماذا ؟ قال أبي.

- لأنه إذا كان تصويبك مضبوطاً، ستصيب مباشرة طائراً وزنه كيلوجراماً منطلقاً بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة، لتتحدث الآن بشكل عملي: مارسيل، اذهب وأحضر لي البندقية.

وهرولت إلى قاعة الطعام، وعدت بخطوات بطيئة، حاملاً هذا السلاح الثمين باحترام. وكان العم دائماً يفتح الترابس قبل كل شيء، ليتأكد ما إذا كانت البندقية معبأة أم لا.

واتخذ العم مكاناً خلف سائر الحديقة، وصنعنا أنا وبول مع أبي نصف دائرة حوله. وحاول العم، الذي أغمض عينيه نصف إغماضة، وأرهف أذنيه، وأحس ظهره، أن يتخيل فيما وراء أوراق الشجر، كروم إقليم روسيئون الذهبية، لا الطريق البائس الموجود. وفجأة نبح نبحتين حادتين قصيرتين. ثم صفر صغيراً حاداً بشفتيه المزمومتين، وقلد الطيران اللاهث لسرب من طير الحجل. ثم خطا للخلف ونظر باهتمام إلى السماء من طرف السائر، وحمل بندقته بسرعة على كتفيه، وصوب ضارباً الضربة الخاطفة، صائحاً : « طاخ ! طاخ » مما جعلنا نكمش نحن الأربعة رؤوسنا بين أكتافنا المتقلصة، وقد شلت حركتنا، وأغمضت عيوننا، توقّعاً لتلقي صدمة سقوط طائر زنة كيلوجرام منطلق بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة.

وخلصنا العم من هذا الموقف بأن قال: « يوم يوم » مشيراً خلفنا، كأن طيرين من طيور الحجل كانا يسقطان معاً. وتابعهما بعينيه لحظة. ثم ذهب والتقطعهما الواحد بعد الآخر — بما أنه في براهينه. لم يكن إلا ليصطاد « هدفين » بضربة

واحدة. ثم عاد ليجلس أخيراً، وهو يصفر لكلبه، في الظل، بخطوات ثقيلة لصياد متعب. فقال أبي المهموم:

- هذا لن يكون أمراً سهلاً.

- بالطبع! ويلزمه التدريب! وأقول لك إنني لم أسمع أبداً بأن مبتدئاً نجح في ذلك من أول مرة... لكنك لو أن لديك استعداداً حقيقياً — وهذا ما أجهله للآن — سيكون ذلك سهلاً عليك في العام المقبل... وحاول أن تتدرب عليه الآن فوراً!

وأخذ أبي الوديع، بندقيته بدوره، وأعاد بإخلاص تمثيل تمثيلية العم جول.

وفي بعض الأحيان، في الصباح، كان يصطحبني معه على طريق وادي «الرابون» الذي كان يحفُّه سائر من الأشجار الكبيرة. وكنا نعيد هناك في الخفاء تمثيل «ضربة الملك»، فكنت ألعب دور المحجل، ثم في لحظة الطيران. أقذف بكل قواي حجراً من خلف السائر، ويحاول أبي متابعته بطرف بندقيته التي يشدها بقوة إلى كتفه.

في أعقاب ذلك — ولصيد الأرانب — كنت أقذف بين الأعشاب، وبغير أن أنبهه، كرة قديمة متعطّنة، هي فضلة من لعبة بولينج كانت منصوبة فيما مضى، وجدها في الحديقة.

وفي أحيان أخرى، كان يرسلني لأختبئ في أجمة، ويأمرني بإغلاق عيني وكنت وأنا في هذا الوضع أرهف أذني، وأتنصت على أقل خشخشة. وفجأة، أجده يضع يده على كتفي، قائلاً: «هل شعرت بي وأنا أتحرك صوبك؟».

بهذا الشكل استعد أبي «لافتتاح الصيد»، بمثابرة متأنية جداً، ومهذبة للغاية، جعلتني، للمرة الأولى في حياتي، أشك في جبروته، وازداد قلقي مع الوقت.

عقب الغداء، ذهب الكبار للقيلولة. ونحنًا نحن فرصة هذه الفترة لكي نضع الدقة للصراصير؛ أي أننا كنا نثبت أوراق اللوز في مؤخرات هذه المنشدات البائسات، فكانت تخرس عن الصرير، وكنت أطلقها بعد ذلك في الهواء، فتطير متعبطة، وكانت تحويماتها الهاذية تضحكنا من قلوبنا.

حوالي الساعة الثالثة، نادانا أبي.

- تعالوا هنا! صباح، كونوا خلفنا بعيداً! فسوف نجرب البنادق!

كان العم جول قد أحكم ربط البندقية في فرعين متوازيين، ومد منها خيطاً طويلاً ربط طرفه بالزناد. وتوقف هو على بعد عشر خطوات منها.

وهرعت أمي وخالتي، لتدفعانا لتراجع للوراء أكثر.

- إتبهاوا! قال العم. لقد وضعت شحنة مضاعفة، وسأضرب الطلقتين مرة واحدة! فإذا انفجرت البندقية، قد يصفر الشطي في آذاننا!

وتراجعت العائلة كلها إلى ماوراء جذع شجرة الزيتون. وأغمض كل منا عيناً. وظل الرجال فقط، مكشوفين على نحو بطولي.

وشد العم الخيط، فمزق صوت الانفجار القوي الهواء. وهرع أبي نحو السلاح المربوط.

- لقد تحمل التجربة! صباح. وقطع الخيط بجذله.

وفتح العم تراس البندقية، وتفحصها عن قرب شديد.

- ممتاز! قال أخيراً. ليس بها صدع ولا تمدد. يا أوجستين، لك أن تطمئني الآن على سلامة جوزيف، فهذه البندقية قوية كالمدفع.

ونظراً لأن النساء اللاتي طمأنهن، كن بعيدات، قال لأبي بصوت خفيف:

- كان بمقدوري طبعاً أنؤكد لك قبل هذه التجربة أنها بندقية ممتازة،

فلا تجب المبالغة، لأنه يحدث بعض الأحيان أن تعرض التجربة بهذا الشكل متانة الماسورة للخطر. لكنها مغامرة لا بد من القبول بها. هيا بنا الآن نختبر مجموع الرصاصات.

وأخرج من جيبه جريدة، فردها، ومضى بخطوات سريعة نحو كوخ المرحاض الصغير القابع في نهاية مشتل الزهور،
- أعنده مغص؟ قال بول.

لكن العم بول لم يدخل الكوخ، بل ثبت على بابهِ الجريدة المفرودة، بأربعة دبابيس، وعاد بخطوات سريعة ناحية أبي.

وعمر بندقيته بخرطوشة واحدة. وصاح «خذوا حذرکم!» ووضع البندقية على كتفه، وصوب، ثم أطلق. وهرب بول الذي كان يضع سداداتٍ في أذنيه، إلى داخل البيت.

واقترب الصيادان من الجريدة، التي أحالتها الثقوب إلى ما يشبه المصفاة. وتفحصها العم جول بإمعان. ثم بدا عليه الرضا.

- إنها مُركّزة تماماً، برغم إطلاقها من الماسورة الضيقة، من بعد ثلاثين متراً، ممتاز. وأخرج من جيبه جريدة أخرى، قال وهو يفردُها:

- دورك يا جوزيف!

وبينما كان يثبت الهدف الجديد في مكانه، عمر أبي بندقيته. وعادت أمي وخالتي، اللتان كانتا قد أخذتا بفعل الانفجار الأول، إلى الشرفة. ووضع بول، الختبي نصف اختباء، وراء التينة سبابتيه في أذنيه. وانعطف العم بخطوة سريعة وقال:

- هيا!

وصوب أبي.

كنت خائفاً ألا يصيب الباب، لأن ذلك كان معناه الإهانة الحاسمة، التي لا بد معها، في رأيي، أن يتراجع عن فكرة الصيد.

وأطلق. كان الانفجار مربعاً، واهتز كتفه بعنف. لكنه لم يبد عليه التأثر ولا المفاجأة. فقد اتجه نحو الهدف بخطوات هادئة - وكنت أسبقه.

أصابني الطلقة مركز الباب، فقد أحاط الخردق بالجريدة من الجهات الأربعة، وشعرت بزهو المنتصر، وانتظرت من العم جول أن يعبر عن إعجابه.

وتقدم العم، وتفحص الهدف، واستدار قائلاً ببساطة:

- هذه ليست بندقية إنها مدفع رشاش!

- لقد أصاب الهدف في مركزه! قلت بصوت قوي.

- كان تصويماً لا بأس به! قال بعجرفة. لكن الحجل الذي يطير شيء آخر يختلف عن باب المرحاض الثابت. هيا، سنجرب الآن رصاص عيار أربعة، وخمسة، وسبعة.

وأطلق كل منهما ثلاث دفعات من بندقيته، تبعتهما في كل مرة تعليقات وفحوص العم. ثم صاح، أخيراً:

- أما الطلقتان الأخيرتان. فستكونان من الخردق الغليظ، أحكم إمساكاً ببندقيتك، يا جوزيف، فقد وضعت عبوة ونصفاً من البارود في كل طلقة. وأنتن سيداتي. اسددن آذانكن، لأنكن ستسمعن الرعد!

وأطلق الاثنان معاً في نفس الوقت. كان صوت الفرقة مذهلاً، وارتج الباب بعنف شديد. وتقدم الاثنان نحو الهدف، مبتسمين، راضيين عن نفسيهما.

- عماء، سألته. هل يمكن لطلقة كهذه أن تقتل خنزيراً برياً؟

- بالتأكيد، صاح، شرط أن تصبيه...

- في جانب كتفه الأيسر!

- بالضبط!

وخلع الجرائد المعلقة. فرأيت في خشب الباب، علامات عميقة محفورة لعشرين رصاصة خردق صغيرة .

هذا خشب قوي، قال. لم يخترقه الخردق، ليتنا استخدمنا الرصاص.

لحسن الحظ لم يستخدموه، لأننا سمعنا من وراء الباب الممزق صوتاً واهناً. كان يقول برحمة:

- هل يمكنني الخروج الآن؟

كان صوت الخادمة.

﴿ ﴾ ﴿ ﴾

وطلع الفجر أخيراً على عشية اليوم الكبير.

قام الاثنان أولاً بقياس زي الصيد. وكان أبي قد اشترى كاسكيتة زرقاء، بدت لي أجمل ما في الزي، وجترئين من الجلد الكستنائي اللون، وخفين برقاب وتعلين من الحبال. وارتدى العم جول بيريهما، وحذاءين طويلين برباط من الأمام، وسترة شديدة الخصوصية، لأبد من الحديث عنها، لأنها كانت سترة رائعة جداً. فعندما رأيناه بها للمرة الأولى، قالت أمي:

- هذه ليست سترة، إنها ثلاثون جيباً خيطت في بعضها!

كانت بها جيوب حتى على الظهر، وقد تلاحظ لي فيما بعد أن هذا الغنى له عيوبه. فعندما كان العم يبحث عن شيء في جيوبه، كان يتحسس الجوخ أولاً، ثم البطانة، ثم الاثنين معاً، لكي يستدل على مكان الشيء. وكان أصعب مافي الأمر بعد ذلك، هو معرفة أي سبيل يمكن التوجه منه نحو الإمساك بالشيء.

بهذا الشكل، فإن شحوراً صغيراً يتم نسيانه في هذه المتاهة. كان يعلن عن حضوره، بعد خمسة عشر يوماً، برائحة كريهة. وكان يسهل تحديد مكانه بواسطة أنف الخالة روز، وبواسطة بروز المتقار التمس الأصفر الذي يطل من البطانة. وكان العم يجس بضع فتحات للجيوب. فيكتشف أذن أرنب، أو حلزون سلق من الحر، أو سلاكة أسنان تنزرع في أظفر أصبعه السبابة. وكان الأمر يتطلب كل مرة فتح البطانة بالمقص لإخراج البجثة.

مع ذلك، فيرم قياس الملابس، كان لسترة العم ثجاح كبير، فقد تمثل فيها وعدٌ بهم من الطرائد. واستمرت الحفلة أمام المرأة وقتاً طويلاً، وبدأ على الصيادين الرضا. لكن زوجتهما جعلتاها يخلعان السترات عندما راحا يصوبان بالبنادق أمام المرأة، وتعهداها بإعادة حياكة أزوارها لإحكامها.

مرة أخرى تم تزيت وتشحيم البنادق، وكان لي حظ تعبئة الخراطيش في أحزمة الجلد ذات الثنيات. من ثم راحا يدرسان الخريطة بطريقة أركان الحرب. ويدهم عدسة مكبرة.

— سنصعد من خلف المنزل، قال العم، حتى «ريد ونيو»، التي هي هنا (وثبت في الخريطة دبوساً برأس سوداء)، وحتى هنا، لن نجد تقريباً شيئاً ذا أهمية. وقد نجد فقط عصافير السمنة أو الشحارير...

— سيكون هذا مهما جداً، قال أبي .

— هذه تَرهات! قال العم. إن طريدتنا — ولا يجب أن يحرفنا عن ذلك وهم — ليست كذلك الحجل، وإنما على الأقل الحجل الرومي الملكي، والأرنب، والأرنب البري. وأعتقد أننا سنجدتها في منطقة «اسكاوبر»، هذا على الأقل ما قاله لي موند دي باييون. إذن فمن «رودينيو»، سننزل إلى «اسكاوبر»، ونصعد حتى سفح قمة «التاومي»، التي سنلتف حولها يميناً حتى «بئر التوتة». وهناك سنتناول غداءنا، أي في حوالي الثانية عشر والنصف. بعد ذلك...

ولكنني لم أستمع لما بعد ذلك، فقد كنت أفكر في خطتي.

كان من الضروري أن أخرج الآن السؤال بوضوح، وأن أحصل على تأكيد بما أيقنت به، وهو اليقين الذي تزعزع بسبب السلوك غير الإيجابي للمحيطين. فلم يتحدثوا عن بذلتي... أيقنون قد فكروا هكذا أن ملاسبي كافية لكلب صيد؟

ذات صباح، كنت قلت للخادمة إنني أنتظر بفارغ الصبر افتتاح الصيد. وضحكت هذه المخلوقة وهي تجيبني:

— لا تتخيل أنهم سيصحبونك معهم!

وكان جوابها يعكس سوء طوية سخييف لبلهاء، فأسفت لأنني توجهت إليها بالحديث. وكان مما ضاعف قلقي، أنه بدا لي أن أبي يشعر ببعض القلق بهذا الصدد وأنه عدة مرات على طاولة الطعام — وبدون أي سبب — قال إن النوم أمر ضروري للأطفال، كل الأطفال بلا استثناء، وأنه من الخطر إيقاظهم في الرابعة صباحاً. وقد أفاض العم في هذا المعنى، حتى أنه أورد في حديثه أمثلة عن الغلمان الصغار الذين أصيبوا بالكساح أو بالسل لأنهم كانوا يوقظونهم مبكرين كل صباح.

وكنت أعتقد أن هذه الخطابات موجهة إلى بول، بهدف إعداده لتثنيته

عن الذهاب للصيد. ولكن بقي في نفسي انطباع قوي غير مريح، أت من بعض الشك المقلق، واستجمعت شجاعتي. كان لابد من إبعاد بول أولاً.

وكان هو في هذه اللحظة أمام الباب، مشغولاً بخريشة بطن صرصور، كان يصبر من اللدة، أو ربما يصرخ من الألم.

وأعطيته شبكة صيد الفراشات، وأوحيت له أنني رأيت لتوي، في نهاية الحديقة، عصفوراً جريحاً، وأن من السهل عليه صيده. وأثاره هذا كثيراً، فترك الصرصور، وقال : «هيا.. بسرعة!» فأجبت بآن من الصعب علي أن أصحبه، لأنهم فرضوا علي أن أستحم، بالصابون.

وكنيت أفكر في أن أستشير عاطفته، وأن أوقظ في نفس الوقت فيه نفس الخشية من أنهم قد يعاقبونه هو الآخر بحمام صابون. وقد نجحت في هذا تماماً، لأنه، متجلباً إلى العصفور، ومرتباً من الحمام، انتزع الشبكة من يدي، واختفى في أكمة الزهور.

وعدت إلى المنزل في اللحظة التي كان العم جول فيها قد طوي الخريطة وهو يقول:

- اثنا عشر كيلو متراً في التلال، ليست بالشيء الكثير، لكنها في نفس الوقت مسافة. فقلت بشجاعة!

- أنا، سأحمل الطعام.

- أي طعام؟ قال العم.

- طعامنا، سأخذ كيسين، وأحمل فيهما الطعام.

- ولأين ستحملة إذن؟ قال أبي.

وقطع هذا السؤال أنفاسي، لأنني لاحظت أنه يدعي عدم الفهم.

وتابعت كلامي يائساً وتحدثت دفعة واحدة بغير أن ألتقط تنفسي.

- في الصيد، أعني. أنا ليست معي بندقية. فمن الطبيعي أن أحمل طعام الغداء، لأن هذا قد يضايقكما حملة. ثم إنكم لو وضعتم الطعام داخل قراب الصيد، فلن يكون به مكان لوضع الطرائد. كما أنني، في مشيتي، لا أحدث أية ضجة. فقد درست الهنود الحمر جيداً، وأعرف كيف ألتصق كالكوماتش، والدليل على ذلك، أنني أباحت الصراصير وأتصيدا وقتما أشاء. كما أنني أرى على بعد، ومنذ عدة أيام، أنا الذي أشرت لك على الصقر، الذي لم تره أنت مباشرة. كذلك فأنتم ليس لديكم كلب، والدراج حين تصيدونه لن تستطيعوا العثور عليه، ولكوني أنا صغيراً، سيمكنني التسلل في الأدغال... وبهذه الطريقة، في الوقت الذي أفتش فيه أنا عن الطريدة المقتنصة، يمكنكم اقتناص غيرها.. ثم...

- تعال هنا، قال أبي ووضع يده الكبيرة على كتفي، ونظر في عيني.

- هل سمعت ما قاله العم جول. اثنا عشر كيلو متراً في التلال! وأنت قدماك صغيرتان لا تستطيعان حملك لمسافة طويلة كهذه!

- إنهما صغيرتان، لكنهما قويتان، قلت. المسهما، إنهما في صلابة الخشب!

وتلمس سماتيّ قدمي: صحيح أنك لديك عضلات قوية...

- ثم إنني خفيف، ليست لدي أفخاذ سمينة كالعم جول، وهذا سيجعلني لا أتعب أبداً!

- هو هو! قال العم جول، الذي سعد جداً بتغيير الحديث، أنا لا أحب كثيراً أن يسمح أحد لنفسه بنقد أفخاذي!

ولكنني لم أقبل تحويل مجرى الحديث، وتابعت القول:

- إن الجرادات ليست سميكة، ومع ذلك تقفز أبعد مما تقفز أنت! ثم إن العم جول عندما كان عمره سبع سنوات، كان أبوه يصطحبه دائماً للصيد. وأنا تخطيت الآن ثمانية أعوام ونصف، ومع ذلك، كان هو يرى أن أباه قاسٍ. إذن، فهذا ظلم... كما لو أنكم لو كنتم غير راغبين في اصطحابي، فسوف أمرض، وقد أصابني بالفعل الآن ألم في القلب!

وأعقبت ذلك، بأن هرعت إلى الحائط، وعقدت ذراعي واضعاً رأسي بينهما ورحت أبكي بصوت عالٍ. وحرار أبي ماذا يقول وريت على شعري.

ودخلت أمي، وبغير أن تعلق، ضمتني إلى صدرها، وكنت في قمة يأسٍ. لأن يوم افتتاح الصيد بدا لي كما لو أنه بداية المغامرة الكبرى في الأحراش العليا المجهولة التي ظلمت أطلع إليها لزمان طويل. والأهم من ذلك، أنني كنت أرغب في مساعدة أبي في امتحانه هذا، وكنت أتصور أنني سأتلسل في الأدغال، وأدفع بالطرائد في اتجاهه، فإذا أخطأ دُرّاجاً، أقول أنا: «لقد رأيته يسقط!»، وأعود حاملاً في يدي بهيئة المنتصر بعض الريش الذي لَمَلَمْتُهُ من قن الدجاج، حتى أبعث الثقة في نفسه. لكن هذا أمر لا أستطيع مصارحته به، وهذا الحب المقهور يكسر قلبي.

- لكنكم أيضاً، قالت أمي بنغمة عتاب، قد حدثتموه كثيراً!

- هذا الأمر سيكون خطيراً، قال أبي خاصة يوم الافتتاح. فسيكون هناك صيادون آخرون باللال... وهو صغير، وقد يختلط الأمر في الأدغال على أحد، فيتصوره طريدة.

- لكنني أنا، سأراهم هؤلاء الصيادين وأحذرهم! صحت بين زفرتين. فإذا حادثتهم بنفسي وصحت عليهم سيفهمون أنني لست أرنباً!

- حسناً، أعدك أن تأتي معنا بعد يومين أو ثلاثة، عندما أكون قد تدرت

جيداً، وعندما لا تتوغل في التلال بعيداً بهذا الشكل.

- لا لا أنا أريد حضور الافتتاح!

عندئذ، بدا العم جول كريماً وعظيماً.

- سأسدس أنفي، ربما فيما لا دخل لي به، قال. لكن من رأيي أن مارسيل يستحق أن يحضر معنا الافتتاح. ليكف عن البكاء إذن. فسوف يحمل طعام غداً لنا، كما اقترح، ويتبعنا في هدوء، على بعد عشر خطوات خلفنا.

واستدار ناحية أبي :

- هل توافقي، يا جوزيف؟

- إذا كنت موافقاً، فأنا موافق.

واختنقت بالعرفان، وأنا أذرف مزيداً من الدموع. وربت أُمِّي بحنان على رأسي، وقبلت وجنتي المبتلتين. فوثبت نحو عمي، وتسلقته وضممت رأسه الكبيرة إلى صدري الذي يخفق.

- هدي من روعك، هدي من روعك! قال أبي .

وبعد قبلتين مطرقتين، نزلت من على كتف عمي في وثبة، وقبلت يد أبي، رافعا يدي لأعلى، قمت برقصة بربرية ختمتها بقفزة وضعتني فوق الطاولة، فأرسلت من عليها ألف قبلة للحاضرين.

- فقط، قلت معقّباً، لا يجب أن نقول لبول، لأنه صغير جداً، وليس بوسعه المشي مسافة بعيدة كهذه.

- هي هيه، ستكذب على أخيك إذن؟

- لن أكذب. ولكنني لن أقول له شيئاً.

- ولكن لو سألك؟ قالت أمي .
- سأكذب عليه، لأن هذا من أجل صالحه.
- هو على حق! قال عمي .
- ثم نظر لي جيداً في عيني، وأضاف:
- أنت قلت الآن قولاً هاماً، حاول ألا تنساه: من الممكن الكذب على الأطفال، إذا كان ذلك في مصلحتهم. وأعاد التأكيد: «لا تنس هذا»
- وكان بول قد رجع، مذهولاً لأنه لم يجد العصفور الجريح، وانتهت المحادثة فجأة.

{ } { }

خلال العشاء، كانت فرحتي كبيرة لدرجة أنني لم أستطع الأكل، برغم متابعة أمي لي بالمراعاة. ولكن بفضل أحاديث العم حول المستمرة عن شهية الصيادين التي كانت كأنها خصلة مميزة لهم كعنصر، التهمت قطعة اللحم، وطلبت مزيداً من البطاطس.

- ماذا دهاك؟ قال أبي .
- أنا أتغذى جيداً استعداداً للغدا
- وما الذي تستعد لعمله في الغد؟ سأل العم بنخمة استفهام ودودة.
- حسناً، قلت، غداً هو الافتتاح.

- الافتتاح؟ لكن الافتتاح ليس غداً وتعجب... غداً، هو الأحد! فهل تتصور أنه مسموح بقتل مخلوقات الرب، في يوم الرب؟ فكيف تذهب للصلاة إذن؟ صحيح، أضاف، إنكم عائلة فاقدة الإيمان! وهذا هو السبب في أن هذا الطفل لديه فكرة مجنونة عن إمكان افتتاح الصيد في يوم أحد! وأصابني الوجوم.

- ولكن، متى سيكون الافتتاح إذن؟
- يوم الاثنين... بعد غد.

كان خبيراً مؤسفاً، لأن يوم الانتظار هذا سيكون يوماً طويلاً لا يتحرك كالقتيل. فما العمل؟ واستسلمت، كارهاً، بغير أن أنطق كلمة. ثم ذهب الجميع للنوم، لأن العم جول كان قد بدأ يتعس.

وأثناء ما كانت أُمِّي تغطي بول الصغير، جاءت إليّ وقبلتني، وقالت لي:
- غدا سأنتهي لكما من حياكة أزياء الهنود الحمر الجديدة، وستصنع أنت السهام. وسيكون لنا على الغداء فطيرة مشمش مع الكريمة المضروبة.

وفهمت أنها وعدتني بهذه المأدبة لكي تخفف من خيبة أُمِّي. فقبلتُ يدها بحنو. لكنها، ما إن خرجت من الغرفة، حتى تحدث الصغير بول. ولم أكن أراه لأنها كانت قد أطفأت الشمعة بنفخة من فمها وهي خارجة. وكان صوت الصغير هادئاً وبارداً:

{} {} {}

- أنا، كنت أعرف أنهم لن يصحبوك للافتتاح. كنت متأكداً
فأجته بنفاق:

- أنا لم أطلب الذهاب أبداً. فالافتتاح ليس من أجل الأطفال.

- أنت كذاب كبير. لقد فهمت فوراً أن حكاية العصفور الجريح لم تكن
إلا كذبة. لذا عدت في التو. ووقفت تحت النافذة، وسمعت كل ما قلته.
وسمعت بكاءك وصياحك! وسمعتك حتى وأنت تعدهم بضرورة الكذب عليّ.
أما أنا، فلا يهمني الذهاب للصيد. فصوت طلقات البنادق يخيفني جداً. ومع
ذلك، أنت كذاب، والعم جول أكثر كذباً منك.

- لماذا ؟

- لأن الافتتاح غداً أنا أعرف، فقد صنعت أمي «الأولميت» بالطماطم بعد
ظهر اليوم، ووضعت في أجربة الصيد، مع قطعة كبيرة من اللحم المدخن، وقطع
اللحم المملح، والخبز، وزجاجة نبيذ. وقد رأيت أنا كل شيء. فقد خبأت
الأجربة في دولااب المطبخ، لكي لا تراها أنت، وسيرحلون هم في الصباح
الباكر. وأنت لن تذهب..

كان هذا الإيضاح مهيناً، وقد رفضت تصديقه.

- هل تجرؤ على القول بأن العم جول يكذب؟ وهو الذي رأيت صورته
وهو يرتدي زي جاويش، ولديه وسام.

- أنا أقول لك إنهم سيذهبون غداً للصيد، فلا تحدثني بعد ذلك، لأنني
أنعس.

وسكت صوت الصغير، وظللت أنا مسهد العينين، يلتهمني الشك طوال
الليل. هل يمكن للإنسان أن يكذب، عندما يكون جاويشاً؟ بالتأكيد لا،
والدليل على ذلك، حكاية الجاويش «بوبيو».

ولكنني تذكرت فجأة أن العم جول لم يكن جازيشاً أبداً، وإنما أنا الذي اخترعت هذا في دوامة اضطرابي. أضف إلى ذلك أنه كان له معي في ماضيه، تلك القصة الفظيعة حول ملكيته لحديقة «بورلي»...

وما الذي فعله وقتها، عندما كشفت له غشه؟ لقد غرق في الضحك، ببساطة، وبغير ندم.

مع ذلك، فقد تلمّست له العذر في هذه الكذبة القديمة، لكي أقلل من هولها، عندما عبرت ذكراها البشعة في مخيلتي.

وأخبر هذا النهار، عندما قلت لغبائي إنني سأكذب على بول لمصلحته، تلقف العم جول الكرة، وأكد على كلامي بصوت عالٍ، لكي يبرر مسبقاً تمثيلته المجرمة. وأصابني اليأس لهذه الخدعة. فحتى أبي، الذي لم يقل شيئاً أبداً، كان متواطئاً صامتاً على مكيدة نسجت ضد ابنه الصغير...

أما أمي، أمي العزيزة، فقد فكرت في الجريمة المخفوقة لكي تعزيني... وغلبني التأثير فجأة لحالتي التعسة، ويكيت في صمت، وجاءني من بعيد، نقيق البومة الفظي ليُفاقم من يأسِي.

وعادوني الشك، فلبول، بعض الأحيان، تصرفات شريرة؛ أياكون قد اخترع هذه القصة لينتقم لنفسه من حكاية العصفور؟

وبدا كل من بالبيت نائمين، فقممت بلا أدنى ضجة، وقضيت أكثر من دقيقة أدير بهدوء أكرة الباب... ولم أُلح وراء أبواب الغرف الأخرى أي ضوء مشتعل. ونزلت على أطراف قدمي الحافيتين، فلم تنز من تحت أي من درجات السلم، وأعانني ضوء القمر في المطبخ، على العثور على كبريت وشمعة، وترددت لحظة أمام دولااب المطبخ الذي يختبئ الغيب به، فخلف هذا اللوح من الخشب الميت، سأكتشف إما غدر العم جول، أو خلداع بول، وسيكون الأمر في كل أحواله كارثة عاطفية...

وأدّرت المفتاح بهدوء... وسحبت الباب... فتتحرك المصراع ناحيتي...
ودلفت في الدولاب الواسع، رافعة الشمعة في يدي، فوجدتهما: الجرابين
الكبيرين من الجلد الأصهب، بجيوبهما الشبكية... وكنا منتفخين لحد التفزّر،
وقد علقت في جانبيهما «الزمازم»... وكان حزاما الخراطيش، اللذان عبأتهما
بنفسي، على رف مجاور. فأني عيد تم الإعداد له! واجتاحني شعور بالذلة.
فاتخذت قراراً قاسياً:

سأذهب معهما، رغما عنهما!

وصعدت لغرفتي بخفة القط، وأعددت خطتي .

كان لايد أولاً من عدم النوم. فلو أنني نمت، لضعت، ولم يحدث أبداً أن
تمكنت وحدي من الاستيقاظ في الرابعة صباحاً. لذا، فلامجال للنوم.

كان عليّ بعد ذلك، أن أعد ملابسي، التي كنت قد تعودت أن ألقى بها
في كل الأركان... فزحفت على أربع في الظلام، ولملمت جورتي، ووضعتهما
في نعلي. وبعد البحث الطويل نسبياً، عثرت على قميصي تحت سرير بول،
فأعدته لمكانه، وكذلك سروالي. واضعاً إياهما تحت سريري. ثم تمددت، معتداً
بالقرار الذي اتخذته، فاشحاً عيني بكل قواي.

كان بول نائماً في هدوء. وكانت بومتان تتجاوبان بالأصوات من وقت
لآخر. ولم تكن إحداهما بعيدة جداً عن نافذتي، فقد كانت بالقطع على شجرة
اللوز الكبيرة. أما صوت الأخرى، فكان أقل خشونة، وكان أجمل في رأيي،
وكان يأتي صاعداً من الوادي. وفكرت في أنه قد يكون صوت الأثنى التي ترد
على ذكرها.

وعبر شعاع ضوء قمري رفيع من خلال ثقب مصراع النافذة، مما جعل
الكأس الموضوعة على المنضدة، بجوار سريري، يلتمع. كان الثقب مستديراً، أما
الضوء فكان مسطحاً. وحدثت نفسي بأن أطلب إيضاحاً من أبي لهذه الظاهرة.

وفجأة، بدأ فأر يحدث ضجة في الصندرة، انتهت بمعركة، مع وثبات
وصرخات حادة، ثم حل صمت، وأنا نبي عبر حاجز الحائط، صوت شخير العم
جول، ذلك الشخير الهادئ والمنتظم لرجل أمين، أو لجرم قاسي القلب «في
رأبي». كان يقول: «مارسيل يستحق أن يحضر الافتتاح معنا»، ولكن كانت
لدية الجرأة في الكذب عليّ «من أجل مصلحتي» فهل مصلحتي هي أن
أسقط في اليأس؟ أنا الذي ضممته إلى صدري على هذا النحو الرقيق! لقد
كان الزعيم الهندي الملقب «بالأيل الرشيق» على حق، فالوجوه الباهتة تتحدث
بلسانين! كنت أكن له، بشكل صاخب، حقداً «أبدياً».

فكرت بعد ذلك في التواطؤ الخياني لأبي، وقد عاهدت نفسي رغم ذلك
أن أسكت عن هذا المشهد الأليم. ورأيتني أستحث الخطي على ممر تحيط به
أدغال، بلا صنوبرات، وكانت الأعشاب تربت على سماتي قديمي أثناء سيري،
وأنا أحمل بندقية طويلة كأنها صنارة صيد، تلتصق في الشمس، وكان معي
كلبي - الذي هو كلب صيد أبيض على أحمر -، وهو يتقدمني، وأنفه تشمم
الأرض، وهو يطلق من حين لآخر نباحاً نائحاً شبيهاً تماماً بالصبيحة الربية
للبومة؛ وكان كلب آخر يرد عليه من بعيد، وفجأة ارتفع طائر كبير، له منقار
بجعة، لكنه كان حجلًا ملكيًا... ورأيت يطير صوبي مباشرة بسرعة وقوة، هي
«ضربة الملك»! قلت لنفسي، فتراجعت خطوة للوراء، وصوبت، وضغطت مرة
واحدة و، طاخ! وسقط الحجل الملكي في سحابة من الريش المتطاير عند قدمي،
ولم يكن لدي وقت لأنتشله، لأن طائرًا آخر جاء صوبي، ثانيًا، ثالثًا. وللمرة
العاشرة، والعشرين، تمكنت من إيجاز «ضربة الملك»، في ظل الدهشة الكبرى
للعلم جول، الذي أطل من خلف أكمة برأس مروعة لكذاب. وقدمت إليه رغم
ذلك الكريمة المخفوقة، وتركت له كل الحجل الرومي وأنا أقول له: «لدينا الحق
في الكذب على الكبار، إذا كان في ذلك مصلحتهم».

بعد ذلك، تمددت تحت شجرة، ورحت في النوم، إلى أن جاء كلبي،

وروشوني في أذني. قال بصوت خفيض: «أنصت، لقد رحلوا بدونك!»
واستيقظت متحسِّباً لكل شيء. كان بول على مقربة من سريري يجلبني
برقة من شعري.

- لقد سمعت أصواتهم، قال، فقد مرا من أمام الباب، وتنصتا علينا،
ولحت الضوء من خلال ثقب المفتاح. ثم نزلا على أطراف أصابعهما.
كان هناك صوت صنبور مفتوح بالمطبخ، فقبَّلت بول، وارتديت ملابسني
في صمت. وكان القمر مختفياً، والليله غير مضية، وقد عثرت على ملابسني
بالتحسس.

- ماذا ستفعل؟ قال بول.

- سأذهب معهم.

- هم لا يريدونك.

- سأبجهم متسللاً من بعيد، كالهنود، طيلة الصباح... لقد قالوا إنهم في
الظهيرة سيتناولون غداءهم بالقرب من بحر التوتة. وفي هذه اللحظة سأظهر لهم
نفسى، فإذا طلبا منى الانصراف، سأقول إننى أخشى أن أتوه، وعندها لن
يتجاسرا على إبعادى.

- لربما تلقيت صفة قوية.

- لا بهم. فقد تلقيت صفعات غيرها، أحيانا للا سبب على الإطلاق...

- لو أنك اختبأت في الأدغال، ربما يحسبك العم جول خنزيراً برياً، وقد
يقتلك، ويكون ذلك بطولة له، لكنك أنت ستموت.

- لا تقلق علىّ.

واستعرت تعبيراً «لفينمور كوبر»، فأضفت: «إن الرصاصة التي قد تقتلني

لم تخلق بعداً!

- وماما، ماذا ستقول لها؟

- هل هي معهم بالأسفل؟

- لا أعرف ... فلم أسمع صوتها.

- سأترك لها ورقة صغيرة على طاولة المطبخ.

وبحذر شديد، فتحت النافذة بغير أن ألمس مصاريعها الخارجية، وتسلفت حافتها، ونظرت من الفتحة التي يدخل منها ضوء القمر.

كان النهار قد بدأ يیزغ، وبدت قمة «التاومي» زرقاء وحمراء في أعلى الهضاب التي مازالت الظلمة تغشاها بعد، ولكنني كنت أرى بوضوح الطريق المؤدي للتلال، فلم يكن بإمكانهم الاختفاء عن ناظري.

وتنصّنت، فقد انقطع صوت الصنبور.

- وإذا طلع عليك دب؟ همس بول.

- لم يحدث أن رأى أحد دُباً في هذه الأنحاء.

- ربما كانوا يتخفّون. احذر جيداً. نخذ معك السكين الحادة من درج المطبخ.

- إنها فكرة جيدة، سأخذها.

وسمعت في الصمت خطوات نعالٍ بكعوبٍ حديدية، ثم انفتح الباب، وانغلق. وهرعت من فوري نحو النافذة، وفتحت مصراعها قليلاً. كانت الخطوات قد دارت حول المنزل، وظهر الخائنات، وشرعا في الصعود باتجاه تخوم الصنبور. كان أبي قد ارتدى كاسكيتته، وجتره الجلديين. والعم جول، يريهه، وحذاءيه الطويلين الجلديين. وكان مشهدهما جميلاً، برغم سوء طواياهما.

وكانا يستحطان السير كأنهما يهريان.

وقبّلت بول، الذي عاد للنوم من فسوره، ونزلت إلى الطابق الأرضي،
وأشعلت شمعة بسرعة. وقطعت ورقة من كراستي.

«أمي الحبيبة، لقد خلصا إلى أن يصطحباني معهما. فلا تضطربي. احتفظي
لي بالكريمة المخفوقة. ولك مني ألف قبلة.»

ووضعت هذه الورقة بالطبع على طاولة المطبخ. ثم دسست قطعة من الخبز
في كيس، مع قالبين من الشيكولاتة، وبرتقالة. وانطلقت مطبقاً يديّ على
مقبض السكين الحادة، على خطى حملة البنادق.

{} {} {}

لم أكن أراهم، ولم أكن أسمعهم، لكن عملية العثور عليهم لم تكن،
بالنسبة «لكومانش»، سوى لعبة سهلة.

وصعدت المنحدر جرياً بكل حِفْظِي، حتى طرف غابة الصنوبر، وتوقفت،
وأرهفت السمع. ونخيل لي أنني سمعت، على البعد، ضجة على الحجر.
وعدوت، متجاوزاً في طريقي كل الأشجار. ووصلت في النهاية إلى أول صنوبرية
في طرف هضبة، كانوا قديماً يزرعونها بالأعشاب، وقد حلت محلها نباتات
السَّمَّاق، ولأكليل الجبل، والعرعر، التي لم تكن شجيراتنا عالية، ورأيت
الكاسكية والبيريه على مبعدة.

كانت بنادقهما معلقة بأكتافهما، وهما مائزان يحنان السير. وتوقفنا،
بالقرب من صنوبرية كبيرة، وهبط البيريه حافة المنحدر، باتجاه اليسار، بينما

واصلت الكاسكيتية سيرها للأمام، لكنها كانت تظهر وتغطف على التوالي، كأنها كاسكيتية تمشي خطوة خطوة على أطراف أصابع الأقدام، وفهمت أن الصيد قد بدأ... وخفق قلبي بسرعة فالتقطت أنفاسي، وانتظرت.

فجأة علا دوي هائل، راح يتردد طويلاً، وهو يتوابع من صدى لصدى، عبر شعاف الوادي... وهرعت إلى الصنوبرة القريبة. وتسلفتها، كارها. وجلست مدلياً ساقني حول فرع كبير، خشية الظهور الفجائي لخنزير بري جريح، ربما هو نفسه الخنزير الذي كرم لسافة ستة أمتار أمعاء الصياد المخالف الأكنع.

ولأن شيئاً لم يظهر، خفت أن يكون الخنزير بسبيله لأن يقرر بطن أبي، وصليت لله - إن كان موجوداً - أن يوجهه صوب عمي الذي يعتقد بالفردوس، ويتقبل الموت، لهذا السبب، بشكل أكثر طواعية.

لكن البيريه ظهر ناحية اليسار، أعلى نبتة عرعر، ملوحاً في الهواء، بطول ذراعه، بعصفور أسود في حجم حمامة صغيرة، وهو يصيح: «إنه عصفور مفرد جميل!» وهرعت الكاسكيتية التي كانت متوارية في حشر من زهور «الزّال» صوبه. وبدا أنهما تشاورا، ثم افترقا من جديد.

وهبطت أنا إلى الأرض. وشاورت نفسي في الأمر: هل من الضروري النزول خلفهم حتى عمق الوادي؟ إن ارتفاع الأحرار سيعوقني عن رؤية الصيد، ومن ناحية أخرى - كما قال أبي - قد أعرض نفسي لطلقة تصيبني بطريق الخطأ. بيد أنني إذا واصلت المتابعة من علي، على طرف الحافة، ولكن من خلف شجر البطم، سيكون بومسي أن أرى كل شيء بدون أن أنظر، إضافة إلى أنه، في حالة ما إذا جرحا خنزيراً برياً سأكون بعيداً عن متناوله، وسأستطيع كذلك الإسهام في القضاء على الوحش، بأن أرمي عليه من أعلى كتلاً من الصخور. لذا، سرت بين أشجار السنديان، التي كانت تخدش ساقني، وبين العرعر... ودرت دورة واسعة نسبياً على الهضبة، ثم تسللت بين الأشجار، فوصلت إلى

حافة الشعقة.

كانا في عمق وادٍ واسع من الصخور الزرقاء. في منتصفه مجرى - جاف -
لجدول من جداول المطر، وكانت الأشجار به قليلة، لكن أحراشه كانت ترتفع
فوق سيقانهم حتى الأحزمة.

كان أبي ناحيتي، يسير منحنيًا نصف انحناء. بندقيته في يده مشرعة أمامه،
«دبشكها» تحت إبطه، ويده اليمنى على زنادها، واليسرى تحت حلقة الزناد،
وهو يتقدم بخطى حذرة، مقوس الظهر، متخطياً الأحراش.

كان منظره جميلاً «جميلاً ومُهذّباً» وكنت فخوراً به. وكان العم، على
المنحدر المواجه، يتبع طريقاً موازياً، ومن وقت لآخر كان يقف، ويلتقط حجراً،
يقذف به في عمق الوادي، وينتظر عدة ثوان. وكنت أراهم بشكل أفضل مما لو
كنت بصحبتهما.

بعد الحجر الثالث، برز طائر ضخم من حرش، وطار كالسهم للوراء، وفي
سرعة رائعة. رفع العم بندقيته إلى كتفه، وصوب. ثم أطلق، وسقط الطائر
كالحجر، وخلفه بعض الريش المتطاير، الذي هبط ببطء في الشمس.

وركض أبي، قافزاً على الكُنديات الشوكية، والتقط الطريدة، ولوح بها من
بعيد للعم الذي صاح: «إنها دجاجة أرض! ضعها في جرابك، وعد إلى
خطك، على بعد عشرين متراً من الجرف».

هذه الطريقة في الحديث، وهذا الدم البارد، وهذا التحكم ألهبوا حماسي،
فالعم جول قد أكد، في سطوع الشمس، صحة رواياته عن الصيد، وشعرت بأن
حقدي عليه قد تلاشى. وكذلك رغبتني في سلخ فروة رأسه، «قالبالفويل» له
الحق في أن يفعل ما يشاء، ونفخت صدري بكل قوة واعتداد وأن أفكر في أنني
ابن أخت زوجته.

وواصل مسيرهما، ولأنهما تجاوزا المكان الذي أراقب منه، انسجبت بحذر،
وتراجعت بميل قوس دائرة جديد، على الهضبة البرية الهائلة، حتى أجازهما
بدوري.

وكانت الشمس اللاهبة على علو مترين من خط الأفق، فجريت وسط
روائح اللافندر الصباحية التي كنت أدوس أزهارها في طريقي.

وعندما خيل لي أنني ذهبت لأبعد مما ذهباً أبطأت من سيري باتجاه الحافة،
لكنني رأيت فجأة شبه دجاجة ذهبية تجري أمامي، كان لون ريشها عند منبت
الدليل أحمرًا. وشلني الانفعال، إنه حجل رومي! أجل كان حجلًا رومياً...
جری بسرعة كالقار، واختفى في أكمة عرعر كبيرة. وبدون أن أنظر اندفعت
في هذه الأفنان الخالية من الشوك. لكن الريشات الحمراء جرت للناحية
الأخرى، فلم تكن الدجاجة وحيدة، إذ أنني رأيت اثنتين أخريين، ثم أربعة، ثم
عشرة... عندئذ انحرفت إلى اليمين لكي أرغمها على الهرب باتجاه الحافة.
ونجحت هذه المناورة، لكنها لم تهمل في طيراتها، كما لو أن حضوري غير
المسلح لم يتطلب من جانبها جهداً أكبر. عندها التقطت أحجاراً وأخذت أقذف
بها أمامي، وحدثت ضجة كبرى، مشابهة لضجة عربة نقل قلابة حديدية تفرغ
حمولتها من الأحجار، فارتعبت للحظة منتظراً ظهور وحش، وعرفت بعد ذلك
أن هذا الصوت كان صوت تخليق السرب، الذي طار باتجاه الحافة، وغطس من
ثم في الوادي.

حال وصولي إلى حافة الشعفة، دوت طلقتان في آن معاً على وجه
التقريب.

ورأيت أبي، الذي كان قد أطلق طلقته، يتابع بنظرة الطيران المحموم
للدرجات الجميلات. لكنهن اتسبن مع هواء الصباح، بلا أية رعدة.

عندها، ومن بين باقة كثيفة من الزهور، برز البيريه، الذي كانت تعلوه

البندقية، وأطلق يتمهل، فانقلب الدراج الأول ناحية اليسار، وسقط، منتزعاً من السماء. وانعطفت الأخريات جهة اليمين، وتحركت البندقية مسافة ربع دائرة. ودوت الطلقة الثانية، وظهر دراج آخر مصاباً بشدة، وسقط تقريباً بشكل عامودي. وصحت من فرحتي، في صوتٍ خفيض... وبعد شيء من البحث، جمع الصيادان الضحيتين اللتين كانت تبعد إحداهما عن الأخرى مسافة خمسين متراً. ولوحاً بهما بطول ذراعيهما. صاح أبي: «برافوا!» لكنه أثناء ما كان يضع الدراج في جرابه، وثب وثبة صغيرة في مكانه بعصبية، وهو يستعيد الأطراف الفارغة لبندقيته، كان أرنب بري جميل يمرق في تلك اللحظة بين رجليه، بغير أن ينتظره حتى ينتهي من هذه العملية، واندفع في الحرش، ذيله في الهواء، وأذناه مسددتان للأمام... ورفع العم جول ذراعيه لأعلى:

— يا للأسف! لا بد أن تعمر في التوا! فبعدما نضرب، نُعمر!!

وفرد أبي المحزون ذراعيين مصلوبتين، ثم «عمر» في تعاسة.

أثناء هذه العملية كلها، كنت واقفاً على طرف الحافة. لكن الصيادين المنبهرين بالدراج لم يروني. وانتهت فجأة لتهوري، وخطوت بضع خطوات إلى الوراء مختفياً من جديد.

كنت واجماً بسبب إخفاقنا، الذي اتخذ أمامي وضع الكارثة. فقد أخطأ مرتين تصويب «ضربة الملك»، وجعله هذا الأرنب البري يجفل قبل أن يزوغ أمامه ليسخر منه. كان الأمر مهزلة محزنة.

وتلمست له بعد ذلك الأعذار، فيما أنه كان تحت الحافة مباشرة، لم يكن لديه الوقت ليرى مقدم الدراج. في الوقت الذي تمكن فيه العم جول من الإطلاق في وضع أفضل. وكأنه في حالة التدريب.

من جهه أخرى، لم يكن أبي قد تعود بعد على بندقيته. وقد قال العم بوضوح إن هذا هو أهم شيء بالنسبة للصياد. ثم إن هذه كانت رحلة صيده

الأولى، وكان هذا هو انفعاله الأول بالصيد، وهو السبب الذي لم يجعله يفكر في «التعمير» بعد الإطلاق مباشرة. لكنني، كان عليّ في نهاية المطاف، أن أعترف بأن مارأيتّه كان يؤكد ما خشيت منه، وقررت ألا أحدث أحداً في هذا الشأن على الإطلاق. خصوصاً هو.

مالذي سيحدث له الآن؟ هل سيتمكن من أن يحقق ضربة مشرقة؟ إنه أي، أستاذ المدرسة وعضو لجنة امتحان الشهادة العامة، الذي يقذف كرات الحديد بكل دقة، وكثيراً ما يلعب الضامة ضد «رافائيل» البارح أمام دائرة من «الحريفة». ترى هل سيعود يخفي حنين بينما يعلق العم جول على أكتافه في عودته، الأرناب البرية والدراجات كأنه واجهة محل...؟ لا، هذا لن يكون، سأبضع طيلة اليوم، وسأطارد أكبر ما يمكنني مطاردته من الطيور، والأرناب، والأرناب البرية، وأبعث بها صوته، حتى يتمكن من صيد إحداها!

كنت أفكر على هذا النحو، وأنا مستند لصنوبر، كانت صراصير التلال الصغيرة السوداء تقرض أعوادها الجافة، في عبق من رائحة الراتنج الساخن، وكنت أمضغ بعصبية غصناً من إكليل الجبل. وواصلت طريقي، مهموماً، يداي في جيوبي، ورأسي مطأطئة. واسترعى انتباهي صوت طلقة بندقية باهت بسبب البعد. وهرعت إلى طرف الحافة. كان الصيادان قد تناعيا، ووصلا إلى طرف الوادي، الذي يفضي إلى سهل صخري كبير... وجريت لألحق بهما. لكنني وجدتهما يتحولان جهة اليمين، ليختفيا في غابة صنوبر، وراء قاعدة قمة «الثاومي» التي كانت في تلك اللحظة مائلة أمامي.

وقررت الهبوط إلى أسفل الوادي، وتتبع آثارهم... لكن الحافة كانت بارتفاع مائة متر، ولم أجد منفذاً أهبط منه. عندئذ فكرت في العودة على أعقاب، لكي أجد الطريق الذي سلكوه عندما تركتهم، لكننا كنا مشينا أكثر من ساعة. وحسبت أنني تلزمني عشرون دقيقة على الأقل للعودة — بخطوة سريعة — حتى النقطة التي بدأت منها. وعندها كان الأمر يتطلب مني أن أجتاز

بعد ذلك كل الوادي، حيث سيكون من الصعب عليّ الجري. بسبب النباتات الشوكية التي ترتفع إلى أعلى من مستوى رأسي، وسيستغرق ذلك مني نصف ساعة. فأين سيكونان بعد كل هذا؟ وجلست على حجر، لكي أعيد التفكير في الموقف.

هل يجب التحامق إذن، والرجوع للمنزل؟ لسوف أفقد هكذا بالطبع، احترام بول، وستتأسى أمي لي برقة تخزيني. فلن تكون لي حكاية يمكن استحسانها، رغم أنه سيظل لي مع ذلك فضل المحاولة الشجاعة، والعودة المحفوفة بالخطر. ولكن هل من حقي أن أترك جوزيف، ببندقيته المضحكة، وعوينات قصر النظر التي يضعها، يناضل وحيداً ضد ملك الصيادين؟ لا. فهذه خيانة ستكون أسوأ من خيائته لي. ثم هل إن المشكلة هي اللحاق بهم... خشية أن أتوه وحيداً؟

ودفعت عن نفسي هائلاً ذلك الخوف الطفولي، فلم يكن أمامي إلا الاحتفاظ بالأعصاب الهائلة لعزيمة «كومانش» حقيقي، وبما أنهما التفتا حول القمة من أسفلها، متجهين من اليسار إلى اليمين، فسوف ألقاهم حتماً إذا واصلت طريقي للأمام. وحاولت حساب مساحة «التأومي». وكانت هائلة. وكانت المسافة التي عليّ قطعها بالطبع طويلة جداً. وقررت أن أستجمع قوتي وأن أهرول خبياً بطريقة الهنود، المرفقان ملتصقان بالجسد، واليدان متقاطعتان على الصدر، والأكتاف مفرودة للوراء، والرأس منحنية للأمام. وأن أجري على أطراف أصابع قدمي. مع وقفة كل مائة متر، للتنصت على ضجيج الغابة، والتنفس ثلاث مرات بهدوء وعمق.

ويتصميم هندي خالص، بدأت السير.

كان المنحدر الذي يصعد أمامي بالكاد محسوساً، وكانت أرضيته عبارة عن بلاطة هائلة من الحجر الجيري مائلة للزرقة، مصدوعة من الجانبين بشقين ينمو عليهما السعتر، والسذاب، والخزامي... ومن حين لآخر كانت تبرز من الحجر

مباشرة شجرة عرعر قوطية أو صنوبرية، جذعها الكثيف الملتف، يتناقض مع ارتفاعها، الذي كان، إلا فيما ندر، في طول قامتي، مما يوضح أن هذه العطشى ناضلت لسنوات في صراع وحشي ضد الحجر الصلب، وأن نقطة واحدة في رحيقها كلفتها صبر أيام. وكان قمة «التاومي»، إلى يساري، المخضلة بالسماء، زرقاء زرق شاحبة، ذات لون فاتح كلون الغسيل، ونجبت باتجاه كنتفي الأيسر، عبر هواء متبخر، جعله الحر يتراقص أمامي. وكنت كل مائة متر، بحسب التقليد الهندي، أتوقف، وأنفخ صدري ثلاث مرات.

بعد عشرين دقيقة، وصلت إلى أسفل القمة، وتغير المنظر الطبيعي، فقد اعترض الهضبة الصخرية مدخل مجرى طبيعي، تحفه الكتل المهذمة، والصنوبرات الكبيرة، والأحراش العالية. ووصلت بسهولة لقاع المجرى، لكنه كان من المستحيل عبور الحافة المقابلة، فقد ضللتني البعد في حساب ارتفاعها. لذا تابعت المسير في قاع الجرف، حتى أثمر فيه على منفذ.

وأبطأت في الخيب الهندي بسبب من إعاقة ستائر ياسمين البر وتكاثف أشجار البطم الصمغي. وكانت أوراق السنديان ذات الأشواك الأربعة المتماثلة على سطوحها، تندس في خفي، الذي كانت حافته الجانبية تثني وتنفرج قليلا بسبب السير على أطراف القدم فكنت أتوقف من حين لآخر لأنتزعها، وأفرغ الخفين منها بنفضهما على الصخر.

كانت الطيور تخلق طيلة الوقت عند قدمي، أو فوق رأسي... ولم أكن أستطيع النظر من حولي لأبعد من عشرة أمتار، فقد حجب الحاجزان الحجريان للمضيق، والأشجار والأكم بقية العالم.

وبدأت أقلق بشدة، لذا أخرجت من كيس السكين الحادة القاطعة، وأطبقت كفي بشدة على مقبضها.

ولم يكن الجو صافياً، وكانت الرائحة الطاغية للتل تملأ عمق الوادي،

كأنها دخان لا يرى. وكانت روائح السعتر والسذاب وإكليل الجبل تُخَضَّرُ الرائحة الذهبية لشجرة الراتنج، التي كانت دمعاتها الطويلة تنسال لامعة في الظل الواضح فوق اللحاء الأسود، وتابعت سيرى بلا أدنى ضجة في صمت ووحدة. إلى أن انطلق صوت مرعب على بعد خطوات مني.

كان الصوت خليطاً مما يشبه البوق المضطرب، والزفرات المتقطعة، والصرخات اليائسة. وكانت هذه الضجة الغامضة كابوسية وجلية، وقد فاقمت منها ترجيعات الأصداء المتتابة في الخور، التي ضاعفتها.

وتوجهت متجمداً من الرعب للمكان الذي جاءت منه، وكنت أرنجف كلية، في صمت أظبق بعدها، وبدا لي أكثر هولاً. وفي هذه اللحظة، دحرجت هرولة أرنب أعلى الحافة من ورائي مباشرة حجراً. وسقط الحجر فوق كوم من الصخور الزرقاء كان له شكل خيال المآة، كان جائماً على المنحدر الصلد الذي يشبه الشرفة. وتحرك الكوم متزلزلاً، في ضجة تشبه ضجة تساقط وابل من الحجر، وانهار انهيار الطامة حتى بلغ كعبي وكاد يغمرها، عندها قفز الزعيم الكومانشي المسكين كحيوان مذعور، ووجد نفسه فجأة معلقاً بمنتصف صنوبرة، كنت أحتضن جذعها وأضمه إلى صدري كما لو أنها أمني. وتنفست بعمق، وتنصّنت في الصمت، كان بودي أن أستمع إلى صرير صرصور، ولكن شيئاً من هذا لم يكن.

كانت الأغصان من حولي كثيفة، تصعب الرؤية من خلالها، ونظرت للأسفل، فشاهدت شفرة سكينتي تلتمع، فوق الأغصان المتساقطة الجافة.

وما إن تأهبت في صمت للنزول، حتى انطلق خليط الأصوات المهدد من جديد، أكثر عنفاً من المرة الأولى. وشلني الخوف، فصعدت حتى قمة الصنوبرة، وأنا غير قادر حتى على مواصلة تأوهاتني الضعيفة... وعلى حين غرة،

لمحت، على الأغصان العالية لسنديانة جافة، عشرة طيور لامعة، كانت أجنحتها زرقاء غامقة تقطعها خطوط بيضاء. وكانت رقابها وأعجازها من لون سميني، وأذيالها سوداء على أزرق، وكانت مناقيرها صفراء بلون الكناري. ولغير ما سبب، وكأنما كان الأمر ممتعاً لهم، كانت الطيور ترفع رؤوسها للوراء، وهي تزعق، وتصيح، وتزفر، وتنعي، بقوة شيطانية، وقد حل فيها الغضب محل الخوف. فهبطت نازلاً حتى أسفل الصنوبر، والتقطت سكينى، والتقطت كذلك حجراً بديعاً مفلطحاً، وجريت صوب شجرة هؤلاء المعتوهين. ولكن بسبب الضجة التي أحدثتها في سيري، طارت العصاة كلها، وانتقلت بضجيجها ولغطها الهلزي إلى صنوبرة بأعلى الحافة.

وجلست على كوم ملتهب من الحصى، بذريعة أن أنفص خفي ثانية، مما علق فيهما، وكنت في واقع الأمر أهدف للراحة من هذه الانفعالات. وقرقشت قلبا من الشيكولاتة.

وتنصت طويلاً إلى التل، فلم يتناه إلى سمعي سوى صمت الموت. فما هذا؟.. ألا يوجد صياد واحد يوم الافتتاح؟... ولقد عرفت، فيما بعد، أن أهل هذه المنطقة لا يخرجون أبداً في هذا اليوم، كما لو أنهم يخجلون من طلب «الترخيص» بالصيد فيه في أرض هي لهم، خشية غضب رجال درك «أوبان»، الذين يثير غيظهم الافتتاح بصفة خاصة.

ونظرت خلفي، لكي أحدد مسافة الطريق الذي قطعته، فرأيت جبلاً غير معروف، يرتفع عالياً في السماء. كان هو القمة الصخرية التي تعلو فوق خمسمائة متر على الأقل، قمة «التاومي»، ولأنتي لم أر من قبل سوى منظرها الجانبي، لم أعرف عليها في هذا الوضع. بنفس الشكل الذي رأى به الفلكي الأول الناحية الأخرى من القمر، وسجله على أنه فلك جديد.

وأصبحت حائراً، وقلقاً بالتالي. ونظرت ثانية على جميع النواحي، فلم أر

أي معلم، وقررت لهذا أن أعود للبيت. وفكرت، حفاظاً على ماء وجهي، في ألا أتوجه مباشرة للبيت، وأن أنتظر عند تخوم غابة الصنوبر القريبة منه عودة الصيادين، وأرجع معهم.

وقلت رجماً، مقتفياً آثار أقدامي، وهو الأمر الذي كان يبدو لي في الظاهر سهلاً، فلم أكن قد حسبت حساب لؤم الأشياء. كانت الطرق التي خلفتها ورائي قد غيرت هيأتها، فالمر الذي ظهر قبلاً إلى اليمين، غير رأيه في العودة وصار ينحرف يساراً... والذي كان يهبط بانحدار خفيف، صار يصعد ككوم من الرّدم. وكانت الأشجار تشابك في الاتجاهات الأربعة.

مع ذلك، ولأنني كنت في عمق الخور، لم يكن مسموحاً لي بترف التشكك فاكثفت بالتراجع على عقبي، وصعدت الوادي، بغير أن أضع في حساباني حيل الأشياء الشيطانية.

عدت على عقبي، وسكّني في يدي، وككوماناش طيب، رحت أبحث عن آثار، في علامة تركتها هنا، أو غصن كسرقه هناك. ولم أجد شيئاً من هذا. وفكرت في الذكاء الرائع للقطعة الصغيرة بالقصة المدرسية، بسبب ابتداعها العبقري للآثار الاصطناعية، وكيف لم يعد بعد في الإمكان تقليدها.

ووصلت فجأة إلى ما يشبه مفترق الطرق، فقد تشعبت «الرقصة» في ثلاث شعاب تعد كل منها على شكل «تقفيفة» بين الأكم حتى خاصرة القمة الغامضة... ولم أكن قد رأيت أثناء نزولي الشُعبتين الثابنتين... كيف حدث هذا؟ رحت أفكر وأنا أصدق في الشعاب الثلاثة الواحدة بعد الأخرى... وفهمت أن الأحراش كانت أعلى مني وأعاقنتني عن الرؤية؛ فأثناء النزول، وبينما كنت أنظر أمامي، لم أر إلا الخور الذي كنت أتبعه، والذي كان، كما قلت، أعوج. ولكن أين الطريق الذي سلكته؟ وكان علي أن أعقل وأفهم أنني كنت قد نزلت في الخور الأول الذي على يساري، بما أنني فوق الهضبة، ولم أكن

قد عبرت أياً من الطريقين الآخرين. لكن الزعيم الكومانشي التمس، انتهى إلى عدم معرفة اتجاه الشمال، فجلس متهاكاً على الأرض، وشرع في البكاء.

مع ذلك، فهمت سريعاً ألا جدوى المخجلة لهذا اليأس، فقد كان يجب فعل شيء ما، وعليّ أن أتصرف بسرعة، كرجل. وأن أستعيد قواي، أولاً، لأنني برغم الصلابة الهائلة لسيقاني، شعرت بتعب مقلق.

في مدخل الشعبة كانت تنتصب شجرة بلوط خضراء بسبعة أو ثمانية جذوع، مبشرة في دائرة، وكانت أغصانها الداكنة الخضرة تبرز في جزيرة من الأحراش تختلط منها نباتات «الأرجيرا» «بالسنديان» وبدا لي هذا الحشد من النباتات الخضراء الشائكة شيئاً يمكن عبوره؛ لكنني «عمدتُ سكينتي «ساطورا»، وشرعت أمهد نفسي بها مراراً.

وبعد ربع ساعة من العناء، وألف لدغة لاهية، اجتزت الدائرة المنيعه، وتراءى أمامي بين الجذوع حيز كبير مستدير من عشب «الباووكو». وجلست فيه بإحساس مشجع بالأمن، فقد كنت في موضع لا يراني فيه أحد، كما أنني لاحظت أن أحد الجذوع يسمح بالتسلق السهل، وهي ميزة لا تقدر بثمن في حالة وجود خنزير بري جريح. وتمددت على ظهري في العشب الطري، عاقداً يديّ تحت رأسي. وكانت بمنتصف البلوطة فرجة كبيرة تسمح برؤية السماء، كان يقف على جذع بمنتصفها طائر من سباع الطير شبه ساكن، يراقب الممر. وخطر لي أن هذا النسر — أو الكوندور — يرى في هذه اللحظة نفسها أبي وعمي وهم بسبيلهم لشواء اللحم على نيران أغصان إكليل الجبل، فقد كانت الشمس في أوجها.

بعد راحة استمرت دقائق، فتحت كيستي، وأكلت، بشهية عظيمة، الخبز والشيكولاتة، لكنني لم أكن أحمل معي شيئاً أشربه، وكان حلقي شديد الجفاف.

كانت لديّ رغبة في التهام البرتقالة. لكن الكومانش يعرف كيف يتوقع
السوء. وأعدتها لكيسي، بما أنه كان في حوزتي مصدر آخر. فقد عرفت —
من قراءتي لجوستاف أيمارد — أنه يكفي أن تمتص زلطة لتشعر بإحساس
الانتعاش اللذيذ. ولم تدخر الطبيعة المتبصرة وسعا في توفير الزلط، في هذا
الصقع المحروم من الموارد. وتخيرت زلطة مستديرة، ملساء في حجم الحمصة،
ودفعت بها، بحسب التكنيك، تحت لساني

كان الوادي الأيمن الضيق يصعد باتجاه السماء؛ ورأيت على بعد مائتي متر
أمامي، أنه ينتهي أمام ركام منحدر ناعم، بما يسمح لي بالصعود إلى سفح،
أتمكن منه أخيراً من أن أشرف على مجموع المنظر الطبيعي، وربما أرى منه
القرية، أو منزلنا. فاستجمعت للتو ثقتي، وشرعت في المسير بخطوة خفيفة.

» » »

كان هذا الوادي، مثله مثل الوادي الآخر، مليحاً بالأحراش الشوكية، لكن
العرعر لإكليل الجبل كانا هما الأكثر انتشاراً به. وبدت لي هذه النباتات أقدم
عمراً من تلك التي رأيتهما من قبل، واستحسنّت شجرة عرعر عريضة جداً وعالية
كأنها كنيسة قوطية صغيرة، وكان نبات إكليل الجبل أطول مني بكثير. ولم
تكن ثمة مظاهر كثيرة للحياة في هذه الصحراء، اللهم إلا صرصور صنوبر كان
يصرّ برخاوة، ثلاث أو أربع ذبابات صغيرة، زرقاء لازوردية، كانت تتبعني، بلا
كلل، وهي تطن كأنها أشخاص كبار.

فجأة مرق ظل فوق الحرجة. فرفعت رأسي، ورأيت النسر الأمريكي. كان
يهبط من قمة السماء ويحلّق بجلال، وبدا لي أن طول جناحه يعادل مرتين

طول ذراعي. وابتعد ناحية اليسار. وخطر لي أنه قد أتى بدافع الفضول الخالص، ليلقي نظرة على هذا التطفل الذي تجاسر على التسلل لمملكته. لكنني رأيته ينعطف انعطافة كبيرة خلفي عائداً للاحية اليمين، واستتجت عندئذ بفزع أنه يقوم بعمل دورة كنت أنا مركزها، وأنه كان يهبط من خلال هذا الدوران شيئاً فشيئاً نحوي!

عندها فكرت في حكاية النسر الجائع، الذي تعقب يوماً، عبر سهل معشب، قصاصاً أثر كان جريحاً وعلى حافة الموت من العطش. «فهذه المخلوقات المفترسة تتعقب الرحالة الخائر القوى لأيام كاملة، وتعرف كيف تصطبر حتى نزرعه الأخير، لتنهش من لحمه المختلج مِرَقَه المدمّة».

وأمسكت عند ذلك بسكيني — التي كنت قد تناقلت وأعدتها للكيس — وسننتها بشكل ظاهر على حجر. وخيل لي أن تحويمة الموت قد كفت عن الهبوط. ولكي أظهر للوحش المفترس أنني لم أكن على حافة التهالك، أخذت أرقص رقصة بربرية، ختمتها بقهقهة ساخرة، ردّتها أصداً الوادي عالياً بما أخافني أنا نفسي... لكن نهّاش اللحم المدمي لم يبد عليه الخوف، وواصل هبوطه المشؤوم. وبحث بعيني — الأعين التي سينقرها بمنقاره المعقوف — عن ملجأ، ووجدت، لحسن الحظ، على بعد عشرين متراً جهة اليمين، حفرة محدودة مفتوحة في الجدار الصخري، فلوحت بسكيني الحادة في الهواء وصرخت مهدداً بصوت مختنق، وأنا أجهّ صوب ملجئ الأخير... فعدوت في خط مستقيم نحوه، عبر العرعر وإكليل الجبل. وكانت ساقي تمزقهما أشواك السنديان، الطالعة في حصباء الأحراش تلك التي كانت تلتف على قدمي... وصار الملجأ على بعد عشر خطوات، وكنت قد تأخرت للأسف! فقد توقف طيران القاتل على مسافة عشرين أو ثلاثين متراً فوق رأسي، ورأته يردد أجنحته الهائلة، ويمد رقبته في اتجاهي، وفجأة أهوى ناحيتي، بسرعة الحجر الساقط. وخبأت عيني خلف ذراعي من الخوف، وانبطحت على بطني تحت عرعة

كبيرة صارخا بياس. في نفس هذه اللحظة دوت ضجة. كضجة عربية نقل أحجار تفرغ حمولتها. كان سرب من الدراج مفزعاً، على بعد عشرة أمتار أمامي، ورأيت ارتفاع النسربفريسة، وهو يطير بسرعة وقدرة حاملاً بين مخليه دراجاً مرتعداً، يتطاير منه في السماء بعض الريش القائط.

وزفرت في ألم عظيم ببعض تنهدات عصبية، فقد استنكر قلبي الصادق هذا الفعل، ووجدت أنه مهما كان الخطر قد زال، فإن عليّ اللجوء إلى الملجأ لمحاولة استعادة هدوء أعصابي.

كان الملجأ صدعاً في الجدار له شكل الخيمة، وكان أطول مني بقليل، وعمق قدمين. وركلت بضع ركلات أعشاب «الباووكو» التي افترشت الأرض، ثم فكرت في الموقف كله، وأنا مسند ظهري للحائط.

وانتبعت إلى أن النسرب لم تكن لديه نية مهاجمتي، فقد كان يطارد الدراجات، هذه الطيور العسة التي هربت أمامي طويلاً، بغير أن تخلق طائرة، بسبب من القاتل الخلق، الذي كان ينتظرها عند إقلاعها... وطمأننتي هذه النظرية بخصوص ما سيحدث، فالنسرب لن يعود ثانية.

وفرحت بعد ذلك بعثوري على زلطة ناعمة جداً ومستديرة، لتهدئة عطشي، لأنني أدركت أنني كنت قد ابتلعت الأولى، بسبب اضطرابي.

وشعرت باحتكاك في خدي الأيمن. فوضعت يدي عليه، لأهرشه، لكن كفي التصبقت به. لأنني كنت قد تلوئت بالصمغ، عندما ضغطت نفسي إلى شجرة الصنوبر، عندما أخافتني الطيور الزرقاء. وكنت أعرف بالخبرة، أننا إذا لم نضع الزيت أو الزبدة، في هذه الحالة، فلا يكون أمامنا إلا أن نحتمل الاحتكاك، والشعور بأن لنا خدّاً من الكرتون. ولكننا عندما نكون قد اخترنا أن نكون كومانش، فإن تعاسة صغيرة كهذه ليس من شأنها حتى مجرد أن تثير اهتمامنا.

وكانت حالة سيقاني مقلقة أكثر. فقد حَزَزْتُها خدوش حمراء طويلة، تقاطعت كأنها الحرش المتشابك. وكان عدد هائل من الأشواك الرفيعة مازال مغروساً فيها. فأخذت أنزعها بصبر. بأظفري، الواحدة بعد الأخرى. ولأن الجروح الصغيرة الناجمة عنها أوجعتني، رحت أقطف بعض النباتات، فكل شخص يعرف أن نباتات التلال تساعد على سرعة الشام الجروح... وقد أخطأت اختيار نوع النبات بغير شك، لأنني بعد أن فركت جروحي جيداً بالسعتر وإكليل الجبل، شعرت بحرق هائل جعلني أترقّص وأنا أصرخ من الألم... ولكي أهدئ من روعي. أكلت في التو نصف البرتقالة، الأمر الذي جعلني في أحسن أحوالي.

وشرعت في الصعود إلى الهضبة، لكن ارتقاء الانقاض الأخيرة كان أصعب مما تصورت، وتكشف لي أن الانقاض كانت قابلة للانهيال، فعندما شارفت قممتها تقريباً، وأنا أزحف على أربع، سقطت إلى الوراء على حصيرة متحركة ناعمة من الزلط. وكاد اليأس من بلوغ هدفي يصيبني، حين اكتشفت منفذاً صاعداً، ضيقاً بعض الشيء بالنسبة لرجل، لكنه كان مناسباً لي.

ووصلت أخيراً للهضبة، وكانت هائلة الاتساع، وخالية تقريباً من الأشجار. لكنها كانت مليئة بالشوك. وإكليل الجبل، والعرعر، والسعتر، والسذاب، واللافندر.

وكانت الصنوبرات الصغيرة ذات الجذوع الغارقة، المائلة باتجاه الريح، والبلاطات الحجرية الكبيرة الزرقاء، منتشرة بها. ونظرت في جميع الاتجاهات. فوجدتني محاطاً بالتلال التي تحف بها دائرة من الجبال التي لا أعرفها. وكان الموقف خطيراً.

وقررت أنه يجب عليّ أولاً أن أحدد اتجاهي. كان أبي قد قال لي مرة: «إذا أنت نظرت لجهة الشرق أمامك، يكون الغرب وراءك، وإلى يسارك تجد الشمال،

والى يمينك الجنوب. إنها مسألة بسيطة كصباح الخير».

نعم، هي مسألة سهلة جداً. ولكن أين الشرق؟ ونظرت إلى الشمس. كانت قد عبرت منتصف السماء، لأنني كنت أعرف أن الظهر قد فات، كنت سعيداً جداً باكتشافي لاتجاه الغروب.

وأوليت للشمس ظهري. وفردت ذراعي، وأكدت لنفسني بصوت عال: «الجنوب إلى يميني، والشمال إلى يساري». بعدها، لاحظت أنه، بسبب فقدان المعالم، لم تنفعني هذه المعرفة الرائعة بشيء. ففي أي اتجاه يقع منزلنا؟ لقد جعلني هذا الوادي الملعب أدور حول نفسي عدة مرات... وخارت عزيمتي. وبسبب من عزيمتي الخائرة ومن يأسى. قررت أن ألعب لعبة أخرى.

بدأت بقذف الأحجار على طريقة الرعاة، وأنا أخبط بقبضتي على فخذي. وكانت توجد على هذه الهضبة، تشكيلة رائعة من الزلط الرفيع، والمفلطح تماماً، بجميع الأحجام. فكنت أقذف الزلطة في الهواء، لتطير وتدور حول نفسها بسرعة عجيبة. ولأنني ركزت في مهارتي صارت تطير أبعد فأبعد. واصطلمت الزلطة العاشرة بعرة، فبرزت من تحتها سحلية جميلة خضراء، كانت بطول ذراعي... وانسريت كزمردة طويلة واختفت في باقة أخرى من العرعر... وجريت، وفي كل يد من يدي حجر. ولكي أخيف السحلية، قذفت بالحجر الأول. فلمحت في نفس اللحظة ظهور كائن غير عادي من بين الخضرة الكثيفة، كان سمينا كفأ الحقل. قفز قفزة لا تقل عن الخمسة أمتار، ليسقط على لوح عريض من الصخر، لم يمكث فوقه سوى ربع ثانية، كان كافياً مع ذلك لأن أرى أن له هيئة «قنغر» صغير. فقد كانت قدماه الخلفيتان طويلتين للغاية وسوداوين وملساوين كقدمي الدجاجة. بينما كان يكسو جسده فراء بني فاتح تتقدمه أذنان مديتان. وأدركت أنه «يربوع»، لأن العم جول كان قد وصفه لي. وبرز ثانية، في خفة الطائر وقطع في قفزات ثلاث

غابة من الأشواك السندية الصغيرة. وحاولت عبثاً اللحاق به فيها ولكنه اختفى، ولكنني أثناء بحثي عنه، اكتشفت شيئاً يشبه الكوخ المخروطي من الأحجار المفلطحة، المرصوفة فوق بعضها بمهارة شديدة. فكان كل صف دائري منها. يضيق في توجهه لصوب المركز، بمقدار عرض أصبع. وكما نجد في بنية القمة، كانت الدوائر التي تضيق في كل سطر منها تتقابل في النهاية، وقد ترك السطر الأخير فراغاً بمنتصفه بحجم الطبق، تمت تغطيته بحجر جميل مفلطح. وذكّرني هذا المأوى بموقفي التعس، فالشمس كانت تهبط نحو خط الأفق، وربما كان لكوخ الراعي هذا أن ينقذ حياتي...

ولم أدخل فيه مباشرة، فالكمل يعرف أن كوخاً متروكاً في البراري، قد يخفي أحياناً هندياً من «السيو» أو الآباش. لذا فإن سهماً هندياً ما مختبئاً في ظله، قد يكون جاهزاً لشق رأس عابر لا مبالٍ... وقد يكون فيه أيضاً ثعبان، أو عناكب سامة أو عقرب رمال ضخمة. من النوع الذي يشب في وجهك وهو يصفر...

وتفحصت الداخل، ناظراً من الكوة. ولم يكن به شيء، اللهم إلا طبقة من العشب، كانت محلاً لنوم أحد الصيادين. ودخلت في الكوخ، الذي وجدته رطباً وآمناً. وفكرت في أنني سيمكثني هنا على الأقل، قضاء الليل في مأوى من وحوش الليل، كالأسد، أو الفهد، ولكنني لاحظت قلقاً، أن فتحة الكوخ لم يكن بها باب.. وخطرت لي مباشرة فكرة أن أجمع عدداً كبيراً من الأحجار المفلطحة وأسدّها بجدار صغير، عندما تحين الساعة التي أوي فيها إلى قلعتي. لذا استبدلت بهذا الشكل دوري كناصر فخاخ، ودهائي ككومانش، بالمناورة الشجاعة لروينسون كروزو.

وأصابني خيبة أمل عندما لم أجد حجراً واحداً مفلطحاً حول الكوخ. أين إذن وجد الراعي الأحجار التي استخدمها؟ وفهمت بلمعة عبقرية أنه استخدم الأحجار التي كانت موجودة كلها فلم يعد منها شيء. ولم يبق أمامي إلا أن

أفتش عنها بعيداً، وهو ما قمت به، بنجاح...

وأثناء ما كنت أقوم بنقل الأحجار - التي سلخت يدي - فكرت في أنه «حتى هذه اللحظة، لم يقلق أحد عليّ». فالصيادان يتصورانني بالمنزل، وأمي تعتقد أنني معهما... ولكن أية كارثة ستحدث! عندما يعودان، فقد يغمرني على أُمي، وستبكي في كل الأحوال». ودفعني هذا أنا نفسي للبكاء، وأنا أحمل على بطني التي انههرست، حجراً مفلطحاً تماماً، كان يزن مثل وزني تقريباً.

ووددت لو أفعل كروينسون كروزو، وأتوجه للسماء بصلاة ورعة، كي أحصل على عون العناية الإلهية. لكنني لم أكن أعرف الصلوات. ثم، إن العناية الإلهية - التي لا وجود لها وتحيط بكل شيء - لم تكن تهمني في شيء.

مع هذا، تذكرت قولاً يقول: «ساعد نفسك، تساعد السماء». لذا فكرت في أن شجاعتي كانت بحاجة لصلاة، وواصلت نقل الأحجار وأنا أبكي. وفكرت في «إن ما هو مؤكد أنهم سيجدون في البحث عني... وأنهم سوف يطلبون عون الفلاحين، وأنتي سوف أشهد، عندما تخيم الظلمة، سطرّاً طويلاً من بطاريات الإضاءة يصعد ناحيتي «من غابة الصمغ»، وأنه سيكون عليّ في هذه الحالة أن أتمكن من إشعال نار، «على أعلى صخرة بالجبل».

ولم يكن معي، لسوء الحظ، كبريت. وهذه الطريقة الهندية، التي ينجحون بها في إشعال العشب الجاف بالحك البسيط لقطعتين من الخشب، وبلا أدنى صعوبة، حاولت تنفيذها قبلاً عدة مرات، وحتى بمساعدة بول - الذي كان يجهد رتبته بالنفخ - ولم أحصل أبداً على أية شرر، وكنت أعزو فشلي شبه النهائي في ذلك، لسبب عدم وجود خشب أمريكي مخصوص، أو لعدم وجود نوع خاص من العشب. فهل ستكون هذه الليلة إذن سوداء ورهيبة، وهل يحتمل أن تكون هي الليلة الأخيرة في حياتي؟

إن هذا هو ماساقتي إليه علم طاعتي وعصيانتي للعلم جول.

وعادت إلى ذاكرتي جملة كثيراً ما كان يرددها أبي، وكان يجعلني أنسخها عدة مرّات عندما كان يعطيني درساً في الكتابة (لتعلم الخطوط المختلفة).

«لا حاجة للتمني عند الاجتهاد، ولا للتوقُّع عند الحصاد»

وقد شرح لي معناها طويلاً. وقال إنها أجمل عبارة في اللغة الفرنسية. وكرّرتها عدة مرّات، وكما لو كانت عبارة سحرية، شعرت بسببها أنني بلغت مبلغ الرجال وانتابني الخجل لأنني بكيت، ولأنني أصابني اليأس.

كنت قد تهت في التل، وهذا هو المأزق! وفكرت في أنني منذ مغادرتي للبيت، كنت أصعد باستمرار تقريباً على منحدرات جافة، وأنه ليس أمامي سوى العودة نازلاً، وسوف أجد بالقطع قرية، أو على الأقل طريقاً مسكوناً.

وأكلت في هدوء النصف الثاني من البرتقالة، ثم انطلقت أعدو، بساقيّ المحترقتين وقدميّ الممزقتين، على المنحدر الخفيف للهضبة.

وأخذت أكرّر لنفسي العبارة السحرية، وأنا أنب فوق نباتات الكاد والعرعر. وكانت الشمس قد بدأت في الاحمرار إلى يميني، من خلف غلل السحاب. كأنها مرسومة على علبة حلوى عيد الميلاد.

وعدت بهذا الشكل لأكثر من ربع ساعة، بخفة، في البداية كاليربوع، ثم كالماعز، ثم كالعجل الصغير. وتوقفت لألتقط أنفاسي. وعندما نظرت خلفي، خلصت إلى أنني قطعت مسافة كيلو متر على الأقل، وإلى أنني لن أرى ثانية هذه الأنوار الثلاثة الغاطسة في الهضبة الهائلة.

ونخيل إليّ أنني لحت، على الناحية الأخرى، ناحية الغروب، ضفة مقابلة لواد صغير. واقتربت بخطوة متباطئة، لكي أقتصد في قوتي قبل العودة للعدو. كان بالفعل وادياً، صغيراً، قد آنحدر الطريق إليه بقدر جعلني أقترب منه. هو نفس الوادي الذي كانوا فيه بالصباح

ومددت يدي، وأزحت نباتات البطم، والأزهار، التي كانت هي الأخرى أطول مني... وكنت على مسافة خمسين متراً من الحافة، عندما دوت طلقة، وبعدها، بثانيتين، دوت طلقة أخرى! وكان صوتها قادماً من أسفل، وانطلقت، مضطرباً من الفرح، في اللحظة التي كان فيها سرب من الطيور الكبيرة طالعا من الوادي، ومتجهاً نحوي مباشرة... وترنح الطائر الذي كان بالمقدمة فجأة، وضم جناحيه، وارتطم بقوة بالأرض، متخطياً عرعة كبيرة. وانعطفت لألتقطه، عندما شعرت ببعض الدوار، بسبب ضربة عنيفة طرحني على ركبتي، فقد سقط طائر آخر فوق رأسي، وانهرت للحظة. وفركت بقوة رأسي التي كانت تطن، فرأيت يدي غارقتين في الدم، واعتقدت أنه دمي، فغرقت في الدموع، ثم استنتجت أن الطيور هي التي كانت مدماة. وهذا روعي.

وأمسكت بكل الطائرين من أرجلهما، وكانا مازالان في رعدة الاحتضار. كانا دراجين. لكن وزنهما أدهشني، فقد كانا كبيرين في حجم الديوك الداجنة، وكنت أرفع ذراعي عالياً بهما. فيلمس منقارهما الأحمران حصي الأرض.

ورقص قلبي بين جوانحي، فسوف يبحث عنهما الصياد الذي اقتنصهما، وسيتحفي بي، ويعيدني للمنزل، لقد كتبت لي النجاة! وعندما عبرت بمشقة، دغلاً من زهور «الأرجيرا»، سمعت صوتاً يرن، وكان صده يملوك حروف الراء. وكان هو صوت الأمان، صوت العم جول، وصوت العناية الإلهية!

ومن خلال الأغصان، رأيته. فقد كان الوادي عريضاً بعض الشيء وقليل الشجر، ولم يكن عميقاً. وكان العم جول آتياً من الضفة المقابلة، وهو يصيح، في دعابة ثقيلة:

- لا، يا جوزيف، لا! لم يكن يجب أن تطلق النار! فالطيور كانت قادمة

صوبي! وجعلتها طلقائك الطائشة تهرب!

وسمعت صوت أبي، الذي لم أتمكن من رؤيته، لأنه كان تحت الحافة:

- لقد كنت في وضع طيب، وأعتقد أنني أصبت إحداها!

- كف عن هذا، رد العم جول باحتقار. كان يمكنك أن تصيب إحداها لو أنك تركتها! لكنك كنت تحاول تحقيق «ضربة الملك» وتصطاد اثنين بضربة واحدة! وقد أخطأتها في الصباح!، وهأنت حاولتها ثانية مع الحجل، الذي كان آتيا صوبي!

- أعترف أنني تعجلت قليلاً، قال أبي، بصوت مذبذب... ولكن مع ذلك...

- مع ذلك، قال العم بصوت قاطع، أخطأت دراجات كبيرة في حجم الطائرات الورقية، برشاش يصيب مساحة ملاءة سرير. والأتمس من هذا، أن هذه الفرصة النادرة، لن تتكرر أبدا! ولو تركتني أنا أطلق لكان الدراج في أجرتنا الآن!

- أعترف بأنني أخطأت، قال أبي، ومع ذلك، فقد رأيت ريشا يتطاير...

وأنا أيضاً، تهكم العم جول، رأيت الريش الجميل يتطاير، حاملاً الحجل بسرعة ستين كيلو متراً، إلى أعلى الحافة، ليسخر منا!

واقترعت، ورأيت جوزيف المسكين، تحت كاسكيتته التي تتوسط رأسه، كان يعضغ بعصبية عوداً من لكيليل الجبل، ويطأطأ رأساً مجزواً. عندها، قفزت إلى قمة صخرة تبرز في أعلى الوادي، وشدت جسدي كالقوس، وصحت بكل قوتي:

- «لقد أصابهما! أصاب اثنين معا! أصابهما!»

وبقضتي الصغيرتين المدمعتين اللتين تدمت منهما الأجنحة الأربعة الذهبية، رفعت عالياً نحو السماء مجد أبي في ضوء الشمس الغاربة.

حامل النبا الطيب، موضع ترحيب، حتى ولو كان مجرماً.

نظر أبي إليّ من أسفل، بابتسامة متألقة. ولم يقل شيئاً سوى: «اثنين معاً، جول. اثنين معاً». ثم انتبه فجأة للموقف فصاح: «ماذا تفعل عندك؟» لكن صوته لم يكن يعبر إلا عن السعادة بالمفاجأة.

وقذفت بالطائرين، واحداً بعد الآخر، عند قدمي المنتصر، وانزلت على المنفلد هابطاً. وعندما لمست قدمي أرض الوادي، وثبت وثبة صغيرة جانبية، فقد كان وابل من الزلط يتدحرج خلفي.

وبدا أبي خلال هذا، معجباً بطيوره، وبحث بيد مرجخفة عن مواضع الضربات القاتلة.

وسألني العم جول بخشونة:

— ماذا تفعل بعيداً هكذا عن البيت، في الساعة السادسة مساءً؟ ألا تعرف أنه كان يمكن أن تنوه؟

— هذا ما حدث، لقد تهت بالفعل، قلت... سأحكي لكم كل شيء. لكن أعطوني أولاً شيئاً أشربه، فأنا مَيِّت من العطش منذ الصباح...

— ماذا؟ صاح أبي. ألم تنفد بالبيت؟

— لا، فقد تعقيبتكم من على بعد. سأشرح لك كل شيء، ولكن أعطني شراباً، فلساني متورم، وهذا يصعب عليّ الحديث...

— لم يعد لدينا سوى نبيذ أبيض، قال العم وصب لي قدحاً.

— جرة واحدة فقط، قال أبي. سوف تشرب في البيت...

وأطعته، ثم قصصت ملحمتي. فأعلمتهم، بافتخار، أنني أنا الذي دفعت نحورهم بطيور الدراج الأولى.

قال العم:

- لقد فهمت، أنه يوجد شخص بأعلى التلال. لكنني اعتقدت أنه صياد...
إذن فقد خدمنا عصيانك في شيء، هذا أمر لا أوافق عليه، ولكن عليّ
الاعتراف بجميله.

- وطيور الحجل! قال أبي الذي راح يشم ريشها موحياً بإعجابه بلحمها.
بدونه لم يكن بإمكاننا العثور عليها أبداً. ولا حتى البحث عنها. فكنت سأعود
خائباً.. نياوي الوفاض!

- كنت سأعطيك الشحارير، قال عمي بكرم.

- لم يكن ذلك ليكون سوى كذبة!

- عجباً! قال العم، كذبة الصياد، شيء لا يستأهل حتى الاعتراف
بالجميل!

كنا، ثلاثتنا، جالسين على حجر كبير.

- ماذا أصاب وجهك؟ سألني أبي فجأة كأنه أفاق من الحلم.

- لا شيء، هو الصمغ.

وقصصت قصة خروجي في هدوء من البيت، والورقة التي تركتها لأمي،
وعزمني اللحاق بهما في (بئر التوتة)، وحكاية النسر الرهيبة. فانتقص العم من
شأن الطائر الجارح مفضلاً الصقر عليه، وأعلن أنه عندما كان في سن العاشرة،
قتل نسرين بالأحجار.

وثبط حديثي من همتي، فلم أتحدث عن خوفي، وشعوري بالوحدة. ولا عن
يأسي، وقررت أن أحتفظ بهذه الحكايات المؤثرة لأمي العاطفية، ولبول المرهف.

فضلاً عن أن أبي كان يستمع لي على مضض، بسبب طيور الحجل، التي

كان يجفف دمها السائل من مناقيرها ويمسّد ريشها الأحمر الطويل .

ونهض العم فجأة .

— ياعزيزي جوزيف، قال، أعتقد أن وقت العودة حان، فلأن هذا أول يوم، صارت قدماي ترهقاني .

وكانت قدماي أنا الآخر ترهقاني، ولم أكن أقدر على الوقوف. ونظر لي أبي برقة، ومسّد شعري، ثم أفرغ بندقيته، ومدها نحوي: — احمل هذه، قال لي .

كان هذا مكافأة كبيرة، فأمسكت باحترام بالسلاح المنتصر .

وفتح أبي جرابه، الذي كان يحتوي عدداً من الفرائس .

— لم يعد عندي مكان أضعهما فيه، وأفتى قائلاً. سيكون من الخسارة تركهما يفسدان .

وبطرفي خيط، علقهما من رقابهما في حزامه. الأول ناحية اليمين، والثاني ناحية اليسار. ثم أولاني ظهره، وهبط التل ويداه على فخذه .

— اقفز يا غلام !

وعلقت البندقية الكبيرة من حمالتها على كتفي، ومضى العم جول أمامي، بعينين مترصدين، لأية مفخرة أخيرة ممكنة .

— ربما لاقينا أرنياً برياً، قال .

وخشيت أن يتمكن من هذا، لأن اصطياده لأرنب برّي بوسعه أن يقلل من قيمة انتصار الحجل، لكننا لم نرأه أذآن. وعندما اطمأنت لعدم ظهور أي أرنب، عند خروجنا من غابة الصنوبر، لحث على مسافة قليلة في الأسفل، بيتنا، وكانت إلى جانب الطريق، أشجار الزيتون، التي تآوي إليها صراصيري...

وضحكت من السعادة، وأنا أجدب بقبضتي خصلات شعر أبي... وحين مررنا أمام أكمة الزيتون، برز أمامنا فجأة هندي صغير جداً من السيو، كان متوجاً بالريش. وحاملاً جعبة من السهام على ظهره، وراح يطلق علينا بشكل متوحش بأصابع يده طلقات طبنجة، ثم هرب إلى البيت، وهو يصيح:
- ماما! لقد اصطادوا بطاً.

وجاءت أمي، ونحالتني، اللتان كانتا تحيكان تحت شجرة التين، نحونا تبعهما «الخادمة»، وكان هذا استقبال الظافرين. وهتفت النسوة الثلاث هتافات الفرح والمحبة.

وأثناء ما كنت أهبط من على أكتاف أبي، تعلق بول، بخفة شديدة، بالحجل، وحمله بذراعيه وجرى نحو النسوة الثلاث.
ورفعت الخادمة عينيها نحو السماء، وعقدت يديها، وصاحت، قبل أن يغمى عليها:

- يا أمي الطيبة! درّاج الملك!

أثناء ذلك، ألقى العم على طاولة الشرفة في ضجة شديدة، حفتين من الشحارير وعصافير السمنة، وخمس أو ست دراجات، وأرنبين. مما جعل أبي يفرغ بدوره جرابه، الذي احتوى على ثلاث دراجات، ودجاجة أرض، وقال:

- انظري ياروز، كل هذا من صيد جول!

- وأنت؟ سألته أمي المحبطة.

- أنا، قال في تواضع، لم أصطد سوى الحجل.

ولحت بوضوح أن هذا أثلج قلبها.

وهرعت أنا إلى «الثلاجة» — التي كانت خزان صابون يحتوي لوح تلج

-لكي أشرب ماء باردا. ووجدت، إلى جوار الدورق الزجاجي، طبقين من أطباق الفاكهة مليعتين بالكريمة المخفوقة، وأسرت أقبال أُمي، التي أصرت أن تغسل لي وجهي، وبعد أربع مرات من الغسل بالصابون، دهنته لي بزيت الزيتون (وظلت على خدي الأيمن لثمانية أيام بقعة كبيرة سمراء، لاصقة ومنفردة، لكنها من لون هندي سيو خالص)، بعد ذلك، وعند رؤيتها لحالة سيقاني التعسة، أجلسني على كرسي مريح، وسخنت إبرة بطرف عود كبريت، وراحت تنتزع الأشواك الصغيرة التي كانت توخزنني بوحشية. وعلى حين كان بول يراقب العملية عن كثب. وهو يئن بدلا مني من الألم، ظلت أنا ساكنا، محتملا، وفخورا، كمحارب عائد من المعركة.

أثناء ذلك، راح أبي يقص بالتفصيل أمجاد العم جول، وراح يثنني على حاسة شمّه الشبيهة بحاسة كلب الصيد، وطريقة سيره المتسجبة، ودقة حكمه، وسرعة إطلاقه. وضبط تصويبه... وكان العم يستمع في سعادة أمام زوجته، وأمي المعجبة. وبعد خمسة أوستة مقاطع قالها هو الآخر في الفخر، بدأ يحتجّل، أي يتحدث عن الحجل، فأخذ يطري مجد جوزيف، مثنيا على هدوء أعصابه، برغم إخفاقاته الأولى، والجهد الذي بذله ليسيّطر على نفسه، وصموده أمام التعب، وأخيرا، على سرعة إلهامه الرائعة، التي ختمت اليوم الجميل، وأنهى العم كلامه بجملة التمنت لها العينان السوداوان لأمي:

- «ضربة ملك» مزدوجة على الحجل الملكي، نفّذها مبتدئ، أنا أقول: إن أحدا لم يشهد مثل ذلك أبدا!

ورغبت في الحديث بدوري، لكي أطري نفسي، لأن الصيادين قد نسياني، لكنني نعمت فجأة، وشعرت بأصابع أُمي تفرد يدي المتسخة على مساند المقعد، ثم حملتني إلى داخل البيت. وحاولت أثناء نعاسي الاحتجاج، باسم الكريمة المخفوقة، ولكنني لم تصدر عني سوى تذريرات واهنة، بعدها اقتادني يربوع نطاظ

أبيض اللون، بحجم الأرنب البري، في أربع وثبات إلى وديان النوم الظليلة.

﴿ ﴾ ﴿ ﴾

صباح اليوم التالي، راحت أمي تحرق، في ركن من طاولة المطبخ، قائمة المهمات، أي المشتريات التي كان على أبي القيام بها في القرية.

- يا غلام، قال لي، أحضر كيسك، ستأتي معي، فالقائمة طويلة، وسأكون محملاً بالكثير! ليس في الوزن، وإنما في الحجم، فسأخذ معي بندقيتي، لأنني لاحظت صقرا يحوم غالب الوقت فوق قن دجاج السيدة «توفي»، فإذا لم نره اليوم، سنقول لها كلمتين ونحن مارّون!

وانتهت أمي من القائمة، ومن النقاش بصوت عال، وهي تخرج الحجلين من خزانة الطعام وتضعهما على الطاولة:

- مالذي ستفعلينه؟ سألها في قلق.

- سأنتفهما، وأنظفهما، لنشويهما في المساء.

- للأسف! هذه ليست فراخاً. إنها فرائس!... لن نأكلها إلا في الغد، فأكلهما اليوم سيكون جريمة، فضلاً عن أنني أرغب في تثمينهما بخبرة السيد موند دي باريون، فلا يجب إهدار فرصة كهذه للتعلم. وهذا الصياد المخالف العجوز يعرف بالتأكيد أكثر مما يعرف محنطو الحيوانات.

وعلق الطائران في حزامه، ثم تناول بندقيته ووضعها على حمالته.

ومضينا في سعادة شديدة. أنا أحمل الأكياس الثلاثة الفارغة، وهو يسير

أمامي، ويتفحص بنظره بساتين الزيتون القائمة على حواف الطريق. وصادفنا
بضع أسراب من عصافير الدوري، لكن صائد الحجل ازدرى هذه الطيور
الصغيرة.

كنت في غاية السعادة لكوني معه، وفي شدة الفخر لصنيعه، لكنني كبحت
نفسي كي لا أظهر هذا الزهو، خشية أن يوبخني.

فدأت يوم عاد السيد أرنو، الذي كان من هواة صيد السمك، إلى المدرسة،
بعد اصطیاده - بالصنارة - «هَلُوق» بحر كبير، وأحضر معه صورة فوتوغرافية
لهذه المفخرة.

في تلك الحقبة، كانت الصورة الفوتوغرافية وثيقة نادرة، تُخلد ذكرى
الطفولة الأولى، وذكرى الخدمة العسكرية، وذكرى الزواج أو الرحلات إلى
الخارج.

وفي ذلك اليوم. شاهدنا فيما يشبه البطاقة البريدية، صورة السيد أرنو
متبسماً، نافخاً صدره، وفي يده اليمنى صنارة الصيد، وذراعه اليسرى مرفوعة
لأعلى، تمسك من الذئبل بالسمكة ذات الأشواك.

يومها، على طاولة الطعام، تحدث أبي عن هذه اللوحة المعبرة عن الانتصار،
قائلاً:

- أن يُسرَّ المرء بالحصول على شيء جميل، هذا أمر مرغوب، ولكن أن
يصور نفسه مع سمكة! ذلك أمر مخز، والزهو، لاشك أنه أكثر النقائص البشرية
عياً!

ولم يقل ذلك بعنف، وإنما بابتسامة رحيمة، دمرت إعجابي بالسيد أرنو،
وهو ماجعني أعتبر أن زيارتنا للسيد موند دي باريون ليس لها سوى هدف
علمي.

ووصلنا أمام المزرعة الصغيرة الواطئة التي يعيش فيها السيد موند الشهير، كان يحيط بها حقل غير مزروع، به دسة من شجر الزيتون، اتخذت هيئة الحرش، بسبب عدم العناية بها، فالسيد موند لا يهذبها أبداً. كان محتلياً دكة، أمام باب البيت، تحت شجرة توت، وممسكا بدلو من الصمغ، غطست فيه عصا رفيعة من الخشب. ورفع رأسه، كانت سؤالته كثيفة كثة رمادية اللون، بيضاء من ناحية، ومصفرة من الناحية الأخرى بسبب عقب السجارة المتدلي من ركن فمه. كانت عيناه سوداء ثابتة، ويداه المشعرتان مرصعتين ببقع صفراء.

وعندما رأى الحجلين، نهض وتقدم، فاغر الفاه.

— ياأمي الطيبة! صاح، كيف اشترت هذه؟

وابتسم أبي ابتسامة صغيرة.

— لم تكلفني سوى طلقتي بندقية.

— ضربة مزدوجة؟ قال موند بتشكك. حجلين بضربة واحدة؟

— نعم، قال أبي. ومسّد شاربه الأسود، بطرفي إصبعيه: الإبهام والسبابة.

— وأين حدث هذا؟

— في وادي لانسلوت. أسفل الحافة مباشرة، من ناحية الهوة.

وأخذ موند الطائرَين، ووزنهما في يديه.

— إن المدهش جداً، أنك عثرت عليهما.

— لماذا؟

— لأن هذه العجماوات، حتى وهي مينة في الهواء، تستمر طائرة مسافة خمسمائة أو ستمائة متر.

- كان الصغير فوق الحافة، وهو الذي رآها تسقط.

- برافوريا شاطر، قال لي موند، مرحى مرحى. سأصبحك للصيد معي.

وأعلن، كما لو أن ذلك قاعدة من قواعد الحياة!

- حين لا يكون معنا كلب صيد، فلا بد لنا من الأطفال!

عند ذلك، طرح أبي عليه ألف سؤال حول الحجل، أصلها وطبائعها، وصعوبة الاقتراب منها. ومرعة طيرانها.

من هذه الأسئلة، ومن إجابات المعجوز موند، خرج بنتيجة واضحة مؤداها، أن اصطلياد حجلين بضربة واحدة، يعدُّ مفخرة، إذا لم تكن أمراً مستحيلاً. فهي على الأقل نادرة جداً، ولا تتحققها إلا «بندقية عظيمة».

وعندما وضحت هذه الحقيقة، ودعنا السيد موند — الذي كان قد شرع في أن يقصُّ علينا نجاحاته الخاصة به، جعلني أفكر في زهو السيد أرنو — وهبطنا إلى القرية. وترك أبي «القائمة» للبقال، في الدكان الصغير الذي كان به خمس أو ست زبائن. لكن البقال، والقائمة في يده، لم ينظر إليها، وراح ينظر إلى الطيور صائحا: «ديكة الأحرار الصحراوية»!

وأعادته أبي إلى صوابه قائلاً له بضع كلمات حول حياة وعادات الحجل. وعرض البقال أن يزنيهما، الأمر الذي قبله أبي شاكراً. وجرت العملية على رأى من الحفل اللاخط.

كان وزن الأسمن ١٥٣٠ جراما، والثاني ١٢٦٠ جراما، فقد أراد البقال أن يحدد وزنيهما بدقة. وكانت من بين الجمع عجوز نظيفة الهيئة (كانت خادمة القسيس) أوصت بحشوها بقلقل قبل وضعهما في السفود، وبألا نقرهما من النار في بداية الشواء، أي أن نجعل سيخ الشواء الدائر يقترب من النار على ثلاث مراحل، على الأقل. وطلبت في مقابل هذه النصائح الثمينة، السماح لها

بأن تأخذ ريشة ذيل، وضعتها على رأسها، بطريقة زعماء الهنود «الباوني»، وراح جميع الداخلين الجدد للدكان ينظرون باحترام للصياد الذي استطاع أن يصيب هذه الإصابة. وتركنا القائمة للبقال، الذي تكفل بإعدادها كلها، وقال لي أبي: «هيا بنا، فلا بد لنا من سؤال السيد فنان».

كان السيد فنان موظف أرشيف بالمحافظة، وكان صديقاً للعلم جول، وكان يقضي إجازاته في هذه القرية، مسقط رأسه.

لكننا في الطريق، صادفنا ساعي البريد الذي كان قد اصطاد بنفسه على أراضي «الألوش» بمنطقة «البوش دي رون»، فاستوقفنا. وأدهشني أنه راح يتحسس رقاب الحجل بسبابته وإبهامه:

— كلام بيننا، قال بصوت خفيض، هل اصطدتكما بالفخ؟

— أبدا! قال أبي، لقد اصطدت الاثنين معا «بطلقة مزدوجة»، لأنني تمكنت من تحقيق «ضربة ملك».

وبدت على الساعي ملامح الغيرة، وراح يتحسس رقاب الطيور، بأمل أن يكتشف فيها أية كسور، وراح أبي، الذي كان ينفخ من الغيظ، يرفع له ريش الطيور، ويريه الجروح القاتلة، التي أخذ الساعي يتفحصها بتشكك. وكان من الضروري بعد ذلك أن يستفسر عن عيار البندقية، ومقاس الرصاصات، والمسافة، ولحظة الإطلاق.

ثم تمكن في نهاية المطاف من السمو على غيرته، وأذعن للاعتراف بالمعجزة.

— أيها السيد، قال، أنا أرفع قبعتي تحية لك. فأنا أتعجب هذه العجماوات منذ عامين، وقد أطلقت عليها خمس مرات، ولم أحصل إلا على بعض الريش! فاسمع لي بأن أشد على يدك.

خلال ذلك، كان أطفال القرية يلتفون حولنا، وهم يصيحون صيحات الإعجاب.

وعند وصولنا للساحة الصغيرة، وقفنا على قسيس القرية، الذي كان يقرأ في كتاب صلواته أمام النافورة، وهو يترقب صوت جرتة، التي كان يملؤها.

وجعله وصول جمعنا يرفع رأسه ناظرا. ونظرا «لأن هؤلاء الناس ينتهزون كل الفرص»، ابتسم ابتسامة عريضة لأبي، وقال. بصوت لطيف:

- أيها السيد، إذا لم تكن اشتريت هذا الحجل من عند أحد التجار، فاسمح لي أن أهنئك!

- وكانت هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها أبي. وجهها لوجه، مع العدو الماكر. وأجاب عليه أبي، في ظل دهشتي الشديدة. بتهذيب:

- لقد جئت بها من وادي لانسلوت، أيها السيد القس.

- نادرا ما رأيت حجلا جميلا بهذا الشكل، قال القسيس، وأعتقد أن القديس هوير قد منحك بركته!

- كان القديس هوير العظيم، هو بندقيتي عيار ١١٢

- ودقة تصويبك أيضا! قال القسيس... فما حصلت عليه عبارة عن حجل ذكر عجوز وحجلة أنثى صغيرة بنت سنتين... فقد كان أبي صيادا عظيما، وهذا هو السبب في أنني على معرفة طيبة بالصيد. فهذا الحجل ليس من نوع (الكاكابيس روبا)، الذي هو أصغر من ذلك في الحجم بكثير. إنه من نوع (الكاكابيس سكاتيل) أي حجل الصخور، الذي يدعى أيضا بالدراج اليوناني، ويسمونه في الريف بـ «البارتاغل».

- ومن أين أتى هذا الاسم! سأل أبي.

- حسناً، قال القس. قد أبدو لك مطلعاً بشكل جيد، ولكنني أعترف لك أن معرفتي بهذا الشأن حديثة. فقد حدثني فلاح بالأمس عن «البارتافيل». ودفعني فضولي للبحث عن أصل هذه الكلمة، ويسعدني أن هذه القضية تشغلك. فقاموسي يقول إنها كلمة فرنسية انحدرت من كلمة ريفية عتيقة، هي «بارتافيللو»، التي كانت تعني القفل الضخم. وقد تمت تسمية الطائر بهذا الاسم بسبب صرخته، التي يبدو أن لها صبراً كصبر القفل نوعاً ما. لكن من رأيي أنا المتواضع جداً، أن هذا التفسير ليس كافياً بالمرّة. وسوف أتحدث مع السيد كبير الأساقفة، الذي سيحضر للغداء غداً في (بريتر)، فإذا قال لي شيئاً هاماً بهذا الشأن، سيسعدني أن أعلمك به. أما الآن فأرجو معذرتك، لأن جرتي امتلأت، والجرس يدعوني.

رفع قلنسوته بأدب شديد، ورفع له أبي كاسكيتته، وحمل القسيس جرتَه ومضى. وذهبتا نفتش عن السيد فنسان، يتبعنا الأطفال، فأخبرونا أنه بالمدينة، ولن يعود إلا في الغد، ومع ذلك بحث عنه أبي في كل القرية، حتى أنه ذهب إلى ساحة اللعب ليسأل المتبارين في لعبة الكرات الحديدية ما إذا كانوا قد رأوه، لكنهم نحوا الحجل التي لم يكن أحد يفكر في إخفائها، فقطعوا لعبهم، وأبدوا إعجابهم بها، ورجحوا وزنها في أيديهم، وسألوا مائة سؤال، وأجاب أبي مائتي إجابة، وهو يعلمهم أنها ليست من نوع الـ (كاكايبس روبا) ولكنها من نوع الـ (الكاكاييس سكاتيليس).

وفي نهاية الشروح، استجاب راضياً، بناء على طلب الجميع، لأن يقوم أمامهم بتمثيل «ضربة الملك»، ففعل ذلك، وهو يؤكد على ضرورة الاحتفاظ بالماسورة «الضيقة» للبندقية للطلقة الثانية. وكان يمكن لهذه الشروح التقنية أن تستمر للمساء، ولكن أوقفتها لحسن الحظ دقائق ساعة الكنيسة، وهي تعلن تمام الثانية عشرة ظهراً.

وذهبنا لأخذ أكياسنا من عند البقال، فقابلنا القسيس للمرة الثانية. وكان يحمل آلة تصوير فوتوغرافي، لها شكل، وأبعاد، وأناقة، بلاطة مصقولة من الحجر.

وتقدم منا مبتسماً، وقال:

- إذا لم يكن هذا يزعبك، أريد أن أحفظ بذكري بنجاحك البديع.
- كان الأمر ضربة حظ، قال أبي في تواضع، وربما لا يستأهل كل هذا الشرف الكبير.

- بل يستأهل، نعم يستأهل!... وسيسعدني أن أرسل لك نسخة من هذه الصورة، التي ستكون ذكرى طيبة لإجازتك السنوية هذا العام.

ورضح أبي بانقياد لمتطلبات التصوير، كان يبدي لي أنه يعاني من هذا، ولكنه لم يتجاسر على ألا يكون مهذباً. فأسند إلى الأرض كعب بندقيته، وأسند يده اليسرى على طرف الماسورة، وأحاط كتفي بذراعه الأيمن. ونظر إلينا السيد القسيس مدة برهة، وهو غامز بعينه، ثم تقدم، وعدّل من وضع الحجلين — اللذين كانا معلقين طيلة الوقت في الحزام — حتى يبرز في مقدمة المشهد بطنيهما المدمشقتين.

ثم تراجع أخيراً لأربع خطوات، ورفع الآلة إلى مستوى حزامه، وحني رأسه وصاح:

- لا تتحركوا!

وسمعت تكة، في قوة تكة القفل. وراح القسيس يعد:

- واحد، اثنان، ثلاث! شكراً!

- نحن نقطن في البيللون، قال أبي، بالبيت المدعو بالحصن الجديد.

— أعرف، أعرف، قال القسيس.

ثم أضاف بصوت مؤثر بعض الشيء :

— لكنني لعدم سنوح الفرصة للتردد عليكم، سأعهد بالصورة التي سأرسلها لك للسيد عدليك، الذي هو أبرز أفراد رعيتنا الكنسيّة. أقول لك الآن إلى اللقاء، ومرة أخرى تهانتي!

ومضى، مؤدباً، صدوقاً، مبتسماً، وكان من الرقة بحيث رغبت في أن أتبعه، الأمر الذي جعلني أفهم مدى الخطر الذي تمثله هذه المظاهر الزائفة بالنسبة للمجتمع. وعندما غادرنا منطقة الساحة، قال أبي :

— نحن في قرية صغيرة، فمن الرعونة أن نظهر له رفضنا، ولربما كان هذا هو ما يطمح فيه، لكي يتهمنا، من ثم، بالتعصب. لكننا كنا أحببنا منه !

< > < >

ومضينا، بخطى حثيثة في طريق العودة الصاعد.

كانت الطيور تتأرجح طيلة الوقت في حزام أبي، ولأنها كانت معلقة من رقابها، وداعبته بقولي أنه اصطاد طيور حجل، لكنها، حين نأكلها، ستكون قد صارت بجما.

ووضعناها في اليوم التالي بالأسياخ، وكانت وجبة تاريخية، وشبة احتفالية. برغم أنه قد شابها حادث مفرج، فالعم جول، الذي كانت له شهية فلاح، هي محل إعجاب كل العائلة، انكسر له ضرر — من البورسلين — تحت شظية

رصاصة من عيار ٧، كانت مختبئة في ورك طري. لكنه ابتسم ابتسامة كبيرة عندما أعلن أبي أن قسيس القرية رجل مثقف، بل وأكثر من ذلك. أنه رجل ودود جداً، وأن المحادثة معه كانت لطيفة.

في اليوم التالي، عندما ذهبنا للصيد، وجدته قد ترك كاسكيتته، ووضع بدلاً منها قبعة من اللباد الكستنائي، قال: إنها ستقيه «من الشمس التي كانت تسقط على عينيه، فتزغلهما». لكنني لاحظت — في صمت — أن حافة اللباد كانت محاطة بشريط — لا يمكن وضعه على كاسكيت — وكانت معلقة بهذا الشريط ريشتان جميلتان حمراوان، رمزا أو ذكرى للإصابة المزدوجة «لضربة الملك».

منذ ذلك اليوم صاروا في القرية، عند الحديث عن أبي، يقولون:

— هل تعرفون هذا السيد الذي يقطن البيبلون؟

— من؟ .. هذا الذي له شارب ضخمة؟

— لا، الآخر! الصياد! صياد الحجل!

﴿ ﴾ ﴾

في الأحد التالي، وعند عودة العم من الصلاة، أخرج من جيبه مظروفاً أصفر وقال:

— هذا، من عند القسيس .

وهرعت كل العائلة. كان المظروف يحتوي ثلاثة إثباتات فوتوغرافية.

وكان ذلك إنجازاً، فطيور الحجل كانت كبيرة، وكان جوزيف يتألق في عز مجده؛ ولم تبد عليه الدهشة أو الزهو، وإنما بدا عليه الاطمئنان الهادئ لصياد ملول، في صيده المتقوي للحجل.

أما أنا، فكانت الشمس قد جعلتني أقطب في الصور بعض الشيء، الأمر الذي لم أبد معه وسيماً في نظري، لكن أمي وخالتي وجدنا في ذلك جاذبية شديدة، وظلنا وقتاً طويلاً تبديان إعجابهما. أما العم جول فقد قال في رقة:

— أود أن أحتفظ بالنسخة الثالثة، إذا لم يكن لديك مانع، يا عزيزي جوزيف، لأن السيد القسيس قال إنه طبعها من أجلي.

— بالطبع، إذا كان هذا الشيء الذي لا معنى له سيسعدك، قال أبي.

— آه نعم، قالت الخالة روز بابتهاج، سوف أضعها في إطار زجاجي ونعلقها بقاعة الطعام! وأحسست بالاعتداد لأننا سيسطع على صورتنا، كل مساء، الضوء الفاخر لمصباح الغاز ببيتهم. أما العزيز جوزيف، فلم يد عليه أي ارتباك. كانت ذقن أمي متكئة على كتفه، وهو يتأمل بإمعان وثيقة تمجيده، متحدثاً عن قصر البرهة من الزمن التي استغرقتها عملية التصوير، بالتعبير عن احترامه للتقنيات. وأعلمنا خلال ذلك أن الصورة، هي عبارة عن ورقة مشبعة بسترات الفضة، ثم وملوحاً بالصورة بطول ذراعه، أعلن أن الإضاءة كانت رائعة، على الرغم من أن ارتفاع شمس الظهيرة قد مط من أنفه قليلاً، وهو «الملم يكن أمراً ذا بال على الإطلاق». ثم رفع، في أعقاب ذلك، نظارته، وتفحص الصورة عن قرب شديد، من جميع الزوايا، وأعلن أن اختيار اللقطة كان ممتازاً، الأمر الذي يثبت أن القسيس كان يعرف جيداً ما فعله.

ثم أعلن أخيراً، وهو يمسك لي على شعري:

— بما أن لدينا نسختين، أريد أن أرسل واحدة لأبي، لأريه كيف صار مارسيل كبيراً...

وصفق بول الصغير بيديه، وانفجرتُ أنا في الضحك. فقد كان بالفعل
فخوراً جداً بصنيعه؛ وقد أرسل نسخة من الصوة لأبيه، وعرض الثانية على كل
المدرسة، كما فعل السيد أرنو.

لقد تكشف أمامي مثالي القوي العزيز في عز ضعفه الإنساني، وشعرت بأن
حبي له قد تضاعف.

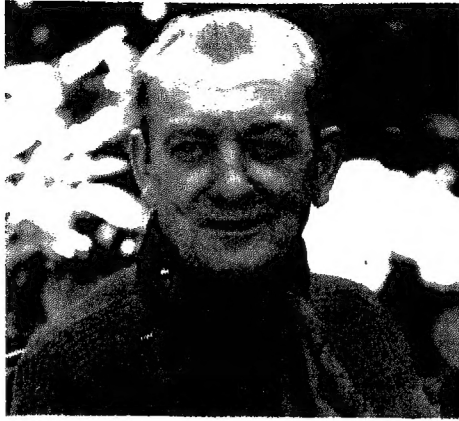
عندها، كدت أطيّر من الفرحة، ورقصت في الشمس.



صدر في هذه السلسلة :

- ١) أيام من حياتي ❖ هريمان هـ
- ٢) قصص التحول ❖ جوجول ، كافكا ، روث
- ٣) أثر العابر ❖ أمجد ناصر
- ٤) من مجمرة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
- ٥) حمار البحر ❖ خالد عبد المعم
- ٦) خطوط الضعف ❖ علاء خالد
- ٧) تمر معتم يصلح لتعلم الرقص ❖ إيمان مرسل
- ٨) ثمة موسيقى تنزل السلام ❖ علي منصور
- ٩) صمت لحظة مبلة ❖ فاطمة قنديل
- ١٠) شهرزاد في الفكر العربي الحديث ❖ د. مصطفى عد الغني
- ١١) إغواء الغرب ❖ لباريه مالمو
- ١٢) لا أحد يأتي هذا المساء ❖ محمد موسى
- ١٣) حوريات البحر ❖ إدوار الخراط
- ١٤) حواس خاصرة ❖ معجم الفقير
- ١٥) طيور حديدية لم يفسدها الهواء ❖ طارق إمام
- ١٦) سراب التريكو ❖ حلمي سالم
- ١٧) صورة شخصية في السبعين ❖ جان بول سارتر
- ١٨) ... و ليلة ❖ صفاء نجي
- ١٩) أليورق الندم ❖ سعد الحميد
- ٢٠) في البحث عن لؤلؤة المستحيل ❖ د. سيد البحراوي
- ٢١) الدليل اللغوي العام ❖ سليمان فاضل
- ٢٢) الأفعال العربية الشاذة ❖ سليمان فياض
- ٢٣) قصة الأدب الفرنسي ❖ د. أمية رشيد
- ٢٤) معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث ❖ توم شتيرليند
- ٢٥) لماذا؟ ❖ إدوار الخراط
- ٢٦) الكتابة ❖ مرجريت دوراس
- ٢٧) معجم الجحيم ❖ سيف الرحبي
- ٢٨) في مستوطنة العقاب ❖ فرانز كافكا
- ٢٩) غواية موتي ❖ سلوى نعيم
- ٣٠) أصوات مراکش ❖ إلياس كاسبي
- ٣١) إن تغت القصاد أو النطقات لفي بي ❖ فوزية شويش السالم

- ٣٢، أبعد من رنجبار ❖ محمد الحارثي
- ٣٣، أناهيد ❖ محمد يوسف
- ٣٤، قضاء المراني ❖ عبد الله السمعلي
- ٣٥، المشي أطول وقت ممكن ❖ إيمان مرسل
- ٣٦، لحم التماثيل ❖ محمد عيد إبراهيم
- ٣٧، فوضى لا أتقنها ❖ محمد عباس
- ٣٨، تشكيل الأذى ❖ ميسون صقر
- ٣٩، بريق الرماد ❖ منير رمزي
- ٤٠، مجد أبي ❖ مارسيل بانول (ذكريات ملفولة ١)
- ٤١، قصر أمي ❖ مارسيل بانول (ذكريات ملفولة ٢)
- ٤٢، زمن الأسرار ❖ مارسيل بانول (ذكريات ملفولة ٣)
- ٤٣، زمن الحب ❖ مارسيل بانول (ذكريات ملفولة ٤)



بما أنني أصبحت الآن جدًا، تملكني في كثير من الأحيان الرغبة في حكاية الحكايات، وهي الوظيفة الطبيعية للأجداد، تلك التي قد تكون مزيتهم الكبرى.

كان جدي يحكي لي حكايات «جلد حمار» (القصة الشعرية ليُيرو) و«الجميلة والوحش» و«ريكيث والرشاشة»... أما أنا فأفضل أن أحكي لكم عن طفولة ولد صغير، ربما لا يختلف كثيراً عن الطفل الذي هو فيكم، لأن الأولاد الصغار في كل بلاد العالم وعبر كل الأزمان لديهم دائماً ذات المشكلات، ونفس المكر، ونفس الحب.

مارسيل بانول